متتالية أمل

متتالية أمل
رواية
محمد الحمراوي
الطبعة الأولى : ٢٠١٥

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل : ٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

تصميم الغلاف : محمد عبد السلام (ريديش ديزاين)
إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٩٧٧٧
رقم الترقيم الدولي : 978-977-6412-83-5

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

محمد الحمراوي

متتالية أمل

3

إلى أمل،
إن كان للكلمات أن تَعْبُرَ عالمنا إلى العالم الآخر.

القسم الأول

المنسي

(١)

كان يجلس إلى مكتبه القديم المتهالكة أخشابه، بين أكوام مكدسة من الأوراق، تحوطه جدران تبدلت عليها ألوان الدهان كما تبدَّل لون شعره من السواد الفاحم إلى البياض الناصع بفعل السنين والخطوب، حين اقتحم سيد ساعي المكتب - والسكرتير إلى أن يأتي سكرتير غالبًا لا يأتي - مكتبه ليقدم إليه مظروفًا بنيًا مغلقًا بعناية، تأمله الأستاذ محمود دون أن تمتد له يد، ثم سأله:

- ما هذا؟

ألقى سيد نظرة بلهاء على المظروف وهمَّ بأن يقول كعادته: «هذا مظروف! ألا يبدو عليه ذلك؟»، لكنه امتنع هذه المرة وحاول أن يبدو هادئًا وهو يجيب:

- هذا مظروف وجدته أمام الباب وأنا أفتح المكتب في الصباح.

عم سيد هو الشريك الفعلي للأستاذ محمود خلال سنوات عمله التي جاوزت الثلاثين، صمد فيها عم سيد أمام الإخفاقات المتكررة، وزوار منتصف الليل وغيرها من الكبوات التي لاحقت الأستاذ محمود وطالته آثارها بالتبعية. ومع تبدل الأيام والخطوب وجد الأستاذ محمود نفسه مضطرًا إلى احتمال

عم سيد مهما كلفه الأمر.. فلم ينتقص من مكانته زيادة عدد العاملين بالجريدة، ولم ينل واحد منهم ثقة الأستاذ محمود المطلقة إلا هو.

- حسنًا يا عم سيد، اتركه وانصرف.

تسمر عم سيد في مكانه للحظات قبل أن ينصرف. لم تكن هناك حاجة لمزيد من الأسئلة، فالأستاذ محمود يعلم، بحكم العِشرة التي جمعتهما، أن لا سبيل إلى الظفر بإجابة شافية.

واصل الأستاذ محمود عمله الذي كان قد عكف عليه منذ الصباح الباكر، وانشغل - أو قل تشاغل - عن المظروف إياه، إلى أن توقف فجأة ليرمق اسمه وقد كُتب عليه بحجم كبير، قبل أن يجذب المظروف نحوه ويرفعه أمام عينيه ليتأمل الخط الذي كان قد نسيه كما نسي صاحبه.

فضَّ غلافه بعناية واستخرج الأوراق التي بداخله، ثم وضعها أمامه ونحى المظروف بيده اليسرى وهو يقلب ببصره الصفحة الأولى بعينين ذاهلتين.

«صديق الأمس القريب..

تحية طيبة وبعد..

كتبت هذه الأوراق لتكون شاهدًا علي أمام نفسي، حتى إذا ما نظرت إلى صورتي في المرآة ألفيت نفسي كما عرفتها دومًا، صادقة، لا أخشى في الحق لومة لائم. وحين انتهى الأمر إلى ما انتهى عليه، هممت بحرقها لأمحو بها آخر آثار حياتي التي أهدرتها في هذا البلد. حتى كان ما كان من عداء الأقربين، فإذا بي أعدل عن قراري، وأرسلها إليك لتعلم ما قد جناه صاحبك على نفسه دون نية منه أو قصد.

المخلص..

داوود المنسي».

علا صوته بالنداء على عم سيد الذي ضعف سمعه كما ضعف جسده الهَرِم،

فحضر مُظهرًا العجل، فسأله الأستاذ محمود:

- من أحضر هذا المظروف؟

تذمر عم سيد وتمتم بكلماته غير المفهومة ثم أجاب على مضض:

- سبق أن أخبرتك يا أستاذ محمود، فتحت الباب فوجدت المظروف.

تحول الأستاذ محمود ببصره عنه إلى ما يشغله، ثم جذب سيجارة من علبة سجائره وأشعلها مثبتًا بصره على الأوراق التي داهمت صباحه الروتيني حتى ظن عم سيد أن الأستاذ قد نسيه، فتساءل:

- شيء آخر يا أستاذ محمود؟

- قهوة.

انصرف عم سيد مواصلاً التمتمة، وواصل الأستاذ محمود قراءة أوراقه.

(٢)

ذاك اللقاء الذي بدل حياتي وقسمها إلى قسمين، فصار ما قبله ليس كمثل ما استجد بعده. ليت الزمان يعود بي الآن إلى تلك اللحظة في منتصف الليل من يوم بارد في شهر فبراير، حين كنت جالسًا في غرفة مكتبي، أضع اللمسات الأخيرة على مقالي الأسبوعي قبل أن يدق باب الغرفة في الشقة التي أسكنها بمفردي! وجدتني أقول بتلقائية ودون حساب لغرابة الموقف:

- ادخل!

فإذا برجل ثلاثيني، في بدلة سوداء أنيقة، وشعر ممشط بعناية وذقن حليق يخطو إلى داخل الغرفة حتى استقر مباشرة أمام مكتبي فتوقف، وقال بهدوء وأريحية:

- تفضل معنا من فضلك.

كنت قد اعتدت زوار الليل الذين يكسرون الباب أو يحطمون زجاجه من فرط عنف الطرقات المتدافعة من دون داعٍ، لكن الأمر هذه المرة كان مختلفًا تمامًا.

فخطر لي أن أسأل سؤالاً أعلم أني لن أسمع إجابته ككل مرة:

- إلى أين؟
- ستعرف لاحقًا.
كالعادة، تكون الإجابة «لاحقًا» الذي لا يأتي أبدًا، في كل مرة يأتون فيها فيقتحمون عزلتي الاختيارية ثم يودعونني واحدًا من سجونهم أو مكاتبهم المغلقة إلى أن يأتي الفرج فيطلقون سراحي هكذا ومن دون إبداء أسباب للاعتقال، أو لإطلاق السراح بطبيعة الحال. لكن، شيء ما كان مختلفًا هذه المرة.
نهضت واقفًا بعد أن أودعت مقالي واحدًا من الأدراج، ثم سألته السؤال المعتاد ذاته:
- هل لي أن أبدل ملابسي؟
فكانت الإجابة مفاجئة بعض الشيء..
- نعم، لكن بسرعة إذا سمحت.
ما هذا الأدب الجم الذي مُني به رجال الشرطة على غير انتظار؟! لعله ليس من رجال الشرطة! ولكن من عساه قد يكون؟ هل أطلب بطاقة تحقيق شخصيته؟ هل فعلتها من قبل؟ لا، إذًا لِمَ قد أفعلها الآن؟
تخبط رأسي بين تساؤلاتي قبل أن أخرج إلى الصالة حيث انتظرني ما يقارب الخمس رجال في الزي الأنيق ذاته، أهذا هو «اليونيفورم» الجديد؟
بدلت ملابسي بسرعة خشية أن يعدلوا عن رأيهم فيصحبونني معهم بملابسي الداخلية، ثم خرجت إليهم فصحبوني إلى السيارة التي انتظرتني أسفل البناية، لم تكن «بوكسًا» هذه المرة! بل كانت سيارة أحدث «موديل».
ما إن استقللت السيارة حتى وضعوا رأسي داخل الكيس القماشي الأسود إياه حتى لا أعرف الطريق إلى المكان المقصود فأعود لاحقًا لتفجيره مثلاً!
طال بنا الطريق عن عمد أو لا، فسقطت ضحية للنوم داخل كيسي الأسود عدة مرات، إذ لم أكن معتادًا على السهر حتى هذا الوقت المتأخر من الليل.
وأخيرًا.. فوجئت بي وقد جلست على كرسي من الجلد في مكتب أنيق ومعي

مُرافقي الذي نزع عني الكيس الأسود قبل أن يخرج ليعود مجددًا فيصحبني إلى مكتب آخر حيث تسلَّمني شخص أكبر سنًا صحبني بدوره إلى آخر أكبر في مكتب أكبر، نهض فصافحني وأجلسني وطلب لي عصيرًا «فريش»!

كان عجوزًا جاوز الستين من عمره، فبدا في شعره الأشيب وبدلته الأنيقة وساعته السويسرية ونظارته مذهبة الإطار ذا نفوذ كبير هنا. لكن، ما «هنا»؟ أين أنا؟

أجابني دون أن أسأل:

- سيادة الرئيس يريد رؤيتك.

- رئيس ماذا؟

بُهِتَ للحظات تلاعبت فيها الخيالات برأسه، قبل أن يجيب مترددًا بعد أن سقطت عنه ثقته ورزانته:

- سيادة الرئيس يا فندم! رئيس البلد.

الرئيس الذي انتقدته في صحف المعارضة بشكل يومي وعلى مدى سنوات طويلة شاب فيها شعري ولم يمسسه الكِبَر؟

لم يترك لي الفرصة لمزيد من التساؤلات فقد نهض فجأة وأغلق زر الجاكيت ثم صحبني خلفه عبر ممر طويل مفروش بالسجاد الأحمر إياه، ولهذا السجاد الأحمر قصة طويلة؛ فمن المعروف أن مراسم استقبال رؤساء الدول تختلف باختلاف الغرض من الزيارة، ومن ضمن تلك المراسم طول السجادة الحمراء التي تغطي الأرض أمام الطائرة، فحين كان الرئيس في زيارة ودية لإحدى الدول أصر على أن تفرش السجادة الطويلة، الخاصة بالزيارة الرسمية، ولم يهبط من الطائرة إلا بعد أن نفذوا له طلبه كارهين.

أدخلني الرجل عبر باب في آخر الممر إلى بهو كبير يكفي ليستوعب كل رجال الشرطة واقفين. ما الذي يدفعني إلى التفكير الآن في رجال الشرطة؟ لا أعلم. لم يكن سيادته بداخله، بل حضر من باب في آخره، فلما رآه صاحبنا انحنى مبجلاً ثم انصرف بإشارة منه.

علي الاعتراف بأنه كان مهيبًا بحق، تعلو وجهه هالة من الجلال تفرض عليك حضورها الطاغي.

خطا نحوي في قامة ممشوقة وخطوات واثقة سليمة، يبدو في قوامه الرياضي وشعره الأسود وجلده المشدود شابًا في الثلاثين أو الأربعين على الأكثر، لا عجوزًا جاوز السبعين. فلما اقترب امتدت يده مصافحة فمددت يدي بدوري وإذا به يعتصرها بيده القوية، محييًا ومظهرًا الإعجاب بكتاباتي، التي – وعلى حد قوله – تأثر بها.

حين جلس سألني:

- يا أخي أنتم معشر الكُتَّاب لماذا تصورون الحياة بهذا السوء؟!

تحيرت قبل أن أجيب:

- نحن مرآة الواقع.

- أليس بهذا الواقع نقطة واحدة مضيئة؟ يا أخي هناك مثل يقول: «أنظر لنصف الكوب الملآن»! يعني مثلاً.. هذا الحذاء – ثم أشار إلى حذائه – أنت تراه أسود، لكنك لا تراه لامعًا.

كان مثالاً غريبًا، لكنه لم يتوقف أمامه كثيرًا، بل توقف أمام الحذاء!

- تعرف، أنا أحب أن أُلمع حذائي بنفسي، اعتدت هذا منذ أيام الدراسة في الكلية الحربية، وحتى الآن.

ثم انتقل الحديث إلى حذائي أنا!

- هذا الحذاء.. جاهز أم تفصيل؟

(٣)

استغرقني اللقاء الأول الذي يجمعني برئيس الجمهورية قرابة نصف الساعة قضيناها في الحديث حول الأحذية! كان أمرًا محبطًا للغاية، تمنيت أن تنتهي المقابلة سريعًا، أو أن أستيقظ في لحظة ما فأكتشف أني كنت أحلم بكابوس ما، وينتهي كل شيء بمجرد أن أغسل وجهي وأشرب كوبًا من الماء.

كانت صدمة أن أكتشف بين عشية وضحاها أن العدو الذي أنفقت عمري أحاربه، يبدو بهذا الضعف العقلي! كنت أتوقع داهية يدير هذا البلد ويتلاعب بنا إلى الحد الذي يشعرنا بالعجز أمام قواه الخارقة، فإذا بي أفاجأ برجل قروي يتحدث عن الأحذية الأنيقة وأصحابها من الملوك والرؤساء!

ليت الأمر انتهى عند هذا الحد، لكنهم احتفظوا بي داخل إحدى غرف النوم الملحقة بالقصر عقب انتهاء اللقاء، دون إبداء سبب واضح.

كانت غرفة جيدة، ليست بمستوى غرف القصر، لكنها جيدة، تحوي بين جدرانها سريرًا وثيرًا، ودولابًا للملابس، وثلاجة صغيرة للمشروبات، ومكتبًا خشبيًا صغيرًا عاريًا إلا من أوراق بيضاء وأقلام. ومائدة طعام صغيرة خشبية مستديرة يحوطها مقعدان. ترى هل يشاركني أحدهم الطعام هنا؟

أكثر ما أثار حفيظتي هو وجود حمام صغير ملحق بالغرفة، فهذا يعني أني لن أضطر لمغادرتها إطلاقًا، وهو ما يعني بالضرورة أني قد صرت سجين القصر!
في صباح اليوم التالي، وبالتحديد في السادسة صباحًا، استُدعيت لمشاركة سيادته الجري! ما بال هذا الرجل لا يكبر أبدًا؟!
أشار علي أحدهم بارتداء «الترينينج سوت» الموجود داخل دولاب الغرفة. ارتديته بصعوبة محاولاً أن أصرع بقايا النوم. فلم أنتبه إلى الصدف الغريبة التي أوجدت بدولاب الغرفة التي أقطنها «ترينينج سوت» مقاسي!
تبعته إلى الحديقة حيث وقفت للحظات قبل أن يخرج في بدلته الرياضية الأنيقة، تبدو عليه أمارات اليقظة والنشاط. صافحني ثم أشار إلى الطريق الذي سنسلكه في أثناء الجري.
- هل نمت جيدًا؟
أجبته محاولاً التقاط أنفاسي..
- أنا لست معتادًا على السهر، وبالنظر إلى ليلة البارحة فلم أكن أتوقع الاستيقاظ مبكرًا هكذا.
- الاستيقاظ مبكرًا أفضل لجسدك، والرياضة تحافظ على صحتك.
بدا رجلاً يرى الصواب بعينيه هو، ولا يجد غضاضة في فرضه، ولو بالقوة. فلم ألجأ إلى مجادلته، وترقبت اللحظة التي يشير فيها إلي بالعودة إلى بيتي.
- طبعًا أنت تسأل نفسك الآن، لماذا أنت هنا؟
هل هو حقًا بهذا الغباء؟ صمتُّ ولم أعلق، فتوقف فجأة، فتوقفت بدوري أحمد الله، ثم أخذ نفسًا عميقًا شرد في أثنائه ببصره إلى الخضرة المحيطة بنا، ثم التفت نحوي وهو يقول:
- أريد أن أستعين بك على كتابة مذكراتي.
- .....
صوب نظراته إلى عيني حتى ظننت أنه قد نفذ إلى داخلي، حتى مع بلاهته الظاهرية، يبدو مهيبًا.

- ولِمَ أنا بالتحديد؟
ابتسم نصف ابتسامة وهو يجيب:
- تقصد كونك معارضًا، لم تكتب يومًا مقالاً يخلو من الهجوم علي؟!
ثم صمت غير منتظر إجابة، وأردف:
- لهذا السبب بالضبط.
- لديك كُتَّابُك الذين يُسبِّحون بحمدك.
كانت تلك جرأة مني، بدت مستحبة خلاف ما توقعته.
- هؤلاء المنافقين؟ الجميع يعلم بنفاقهم حتى أنا، كيف تتوقع مني أن أعتمد عليهم في تأريخ سيرتي الذاتية؟!
- لهذا السبب بالضبط.
برقت عيناه للحظات كقطة حالكة السواد في ليلة ظلماء، فوجفت هنيهة قبل أن يعود إلى حالته السابقة قائلا:
- أريد كاتبًا مرموقًا لديه مصداقية.. مثلك. الناس لن يصدقوا واحدًا ممن تقصدهم.
- إن فعلتها فلن أكتب إلا الحقيقة. لذا فلن أفعلها.
- وما الحقيقة؟ هل الحقيقة هي ما تراه عيناك أنت فقط؟ الحقيقة نسبية.
ثم مشي في طريقنا فتبعته وأنا أقول:
- الحقيقة هي كونك تحكم البلاد منذ سنوات طويلة تعاقبت فيها الأجيال.
توقف فجأة محتدًا:
- هل تظن أني راغب في هذا؟
ثم أشار إلى القصر.
- لقد تعبت من هذا الضغط اليومي. أحمل فوق كاهلي هموم الملايين، الواحد منهم يطلب شقة وزوجة وعملاً يدر عليه الآلاف كل شهر، دون أن يحرك ساكنًا!
- فلِمَ تُصر على البقاء؟

- لست أنا من يصر، بل هم. (يقصد الشعب)..
ترددت قليلاً قبل أن أسأل:
- هل تريد أن تقول إن الشعب الذي يعاني الأمَرَّين هو الذي يختارك لحكمه طوال هذه السنوات؟!
- الشعب يعرف من يعمل حقًا من أجله، ويحاول جاهدًا أن يخفف عنه أحماله؛ لذا فهو دائمًا ما يختارني.. أليست هذه هي الديمقراطية؟
- الديمقراطية لا تشمل التزوير، والتلاعب بعقول الناس عبر شاشاتكم وصحفكم.
- هذا هو ما يظنه المثقفون دومًا، أن الشعب مُغَيَّب لا يملك إرادته.. لهذا لا يحبكم الشعب.
انفلت زمام هدوئي وأنا أقول:
- وهل يحب الشعب من يحكمه بالحديد والنار حتى الممات؟
أحسست بكلماتي تصطدم بوجهه، وشعرت بحجم الغضب الذي صعد إليه لتجرؤي عليه إلى هذه الدرجة.
- هل تظنني فرعونًا؟ أنا لم آمر الناس بالسجود لتمثالي، كما أني لم أَبْنِ واحدًا!
سبقني منفعلاً إلى سيارة صغيرة كالتي تستخدم في ملاعب الجولف حملت كِلَينا إلى نقطة البداية؛ حيث طاولة الإفطار ونادل قدم إلى كل منا كوبًا من عصير البرتقال «الفريش».
جلس إلى المائدة، وتوقفت أمامها مترددًا، فأشار إلي بالجلوس، فلم أحرك ساكنًا، ووجدتني أقول:
- أنا لن أكتب تلك المذكرات.
شرد للحظات حاول فيها السيطرة على انفعالاته، ثم قال بهدوء مصطنع:
- تريد أن تظل على حالك.. أثناسيوس ضد الجميع، ها؟
لا أدري ما الداعي لذكر أثناسيوس الآن! كما أن أثناسيوس الذي دخل الإسكندرية محمولاً على الأعناق تحوطه سيوف شقيق الملك لم يكن يومًا

ضد الجميع فعليًا. أظنه حاول إظهار شيء من الثقافة، ليسلط الأضواء على الجوانب التي لم أرها من حياته، لعلها تغريني بالاقتراب.

- حسنًا، دعنا من قرارك الآن، فقط امكث هنا بضعة أيام، بعدها أطلعني على قرارك.

لم يدَعْ لي فرصة للرد، وأردف قائلا في لهجة آمرة لم أملك أمامها إلا الانصياع:

- اجلس لتناول الإفطار.

(٤)

حين خلوت إلى نفسي، أخذت أفكر في الدوافع التي قد تدفعه إلى هذا العرض الغريب؛ كتابة مذكراته! كل الذين سبقوه إلى الحكم سبقوه أيضًا إلى كتابة مذكراتهم، لكنهم لم يعتمدوا إلا على خاصتهم من الكتاب الموثوق في ولائهم، لكن هذه المرة تختلف، فهو يود أن يعتمد على واحد من أشرس معارضيه في كتابة مذكراته، وهو بالتأكيد لا يسعى إلى الحقيقة، هو فقط يسعى إلى اعتماد أكاذيبه بأن يضفي عليها طابع المصداقية من خلال الاعتماد على واحد من معارضيه، لكني لن أجاريه في هذا ولو كلفني الأمر حياتي.

تُركت بالغرفة حتى حان موعد طعام الغداء، حين اقتحم الغرفة شاب حليق الرأس، ضخم الجثة، عريض المنكبين، يرتدي بدلة كاملة، ويحمل بيده اليسرى صينية الطعام، وضعها على المائدة المستديرة، ثم انصرف دون أن ينبس ببنت شفة!

فراخ مشوية وحمام محشي وأرز معمَّر وملوخية، هل هي صدفة؟ أم أنه يعلم بحبي لهذه الأصناف من الطعام؟ لم يستغرقني التفكير في الأمر كثيرًا فقد كنت حريصًا على تناول طعامي، إذ كاد الجوع يمزق أحشائي؛ حيث لم

أقدر على تناول طعام الإفطار بصحبته.. فاكتفيت بالجلوس متظاهرًا بعدم الرغبة في الطعام.

قضيت بقية اليوم وحتى طعام العشاء متجولاً في الغرفة، أو مستلقيًا في فراشي مثبتًا نظري إلى السقف، أحسب عدد خيوط السجادة، وكم مسمارًا في الكرسي. حتى إذا ما جاء العشاء بالطريقة ذاتها التي أتى بها الغداء. أتيت عليه كله، ثم عدت إلى حالي قبله.

سجنت كثيرًا من قبل، وتعرضت لكل ويلات السجن، لكن هذا السجن ليس كمثله سجن. شيء ما في هذه الغرفة يجعلك محاصرًا بالأفكار والمخاوف، شيء ما يجعلك تشعر بمراقبتك، بل بمراقبة أفكارك.

مضى اليوم واستيقظت في الثامنة من صباح اليوم التالي، لم يأتِ أحدهم ليطلب مني مرافقة الرئيس في أثناء الجري، أو حتى تناول الإفطار بصحبته. دخلت إلى الحمام، كي أغسل وجهي وأقضي حاجتي ولمَّا خرجت فوجئت بطعام الإفطار وقد تُرك على المائدة. هل يراقبونني؟ هل يسمعون أنفاسي في مكبرات الصوت؟ هل يعرضون عليه تقريرًا بتحركاتي المحدودة داخل الغرفة الضيقة؟ أتصورهم وقد عرضوا عليه تقريرًا عن دخولي إلى الحمام وقضاء حاجتي.

كان قد ثبت لدي تعمد اختيار الأصناف التي أحبها من الطعام، بل بأدق التفاصيل التي كانت تحرص عليها زوجتي قبل وفاتها. كيف علموا كل هذا؟! تلاعبت بعقلي الظنون، صرت أقطع الغرفة جيئة وذهابًا بخطوات مسرعة، أُحدِّث نفسي بصوت مسموع، أتساءل إلى أي حد هم مطلعون على تفاصيل حياتي الشخصية، هل يعلمون بالمرات التي ضاجعت فيها زوجتي؟ هل يحسبون عددها؟ هل نما إلى علمهم كم مرة أخفقت؟ وكم مرة تأوهتْ منتشية؟ آه لو أعلم حدود معرفتهم.. هل يعلمون بكل ما فعلته في الخفاء؟ حتى بـ.. لا، لا يمكن. وما يدريني؟

جلست إلى المكتب الصغير، وتناولت قلمًا، وقضيت دقائق حاولت خلالها

كتابة ما يعتمل بداخلي من المخاوف، ثم فكرت في تسجيل يومياتي داخل القصر، منذ اللحظة التي حُملت فيها إلى لقائي مع مجنون الأحذية هذا، إلى اللحظة التي أخرج فيها إن قدر لي الله الخروج من هنا.. هل كنت لتكتب «مجنون الأحذية» في يومياتك؟ يا لها من فكرة سيئة.

قمت من مكاني وتوجهت إلى الحمام فاستوقفتني المرآة المعلقة أعلى الحوض.. تطلعت إلى وجهي الذي أحسست بتبدله على الرغم من مضي يومين فقط داخل السجن الرئاسي. ألقيت برأسي أسفل الصنبور وتركت المياه تنساب فوق ما تبقى من شعري الذي مل رأسي فهجرها، ليغسل مخاوفي ومتاعبي.

مضى يوم آخر على المنوال ذاته، وأنا على حالتي تلك، أتخبط بين مخاوفي، والإحساس بعدم الأمان، كشاة ترعى بين الذئاب.

في المساء فُتح باب الغرفة عن رجل أربعيني نحيف الجسد أنيق الثياب، بشرته المضيئة وشعره البني وعيناه الخضروان تفضح غربته، خطا نحوي حيث جلست إلى المكتب الخشبي واضعًا رأسي بين كفي، فصافحني مبتسمًا، ثم تجاوزني إلى دولاب الملابس حيث انتقى بنطلونًا أسود وقميصًا أبيض وجاكيتًا رماديًّا تركها ممدة على السرير قبل أن يخطو عائدًا إلى الباب مرة أخرى، جذبه ثم توقف وألقى نظرة على الملابس التي انتقاها ثم علي قائلاً بعربية ركيكة وابتسامة عريضة:

- بسرعة.

ارتديت الملابس التي اختارها لي، على الرغم من عدم فهمي التام. وما إن انتهيت حتى وجدته أمامي مرة أخرى يعدل من هندام ملابسي، يعتني بتمشيط المتبقي من شعري ثم ينصرف بالطريقة ذاتها التي حضر بها، هكذا كان شبح القصر هذا.

ما إن انصرف حتى اقتحم الغرفة شاب ثلاثيني، ضخم الجثة، عريض المنكبين، حليق الرأس والذقن - أجسادهم مفتولة العضلات هذه تشعرني أحيانًا بأني

قد علقت بصالة للألعاب الرياضية - أشار إلي أن أتبعه فتبعته صامتًا حتى أوصلني إلى باب استقبلني عنده زميل له، سلمني إليه ثم انصرف، فهمَّ الأخير بفتح الباب تاركًا أمامي الطريق خاليًا، فتقدمت إلى غرفة فسيحة تحوطها من الداخل مكتبة ضخمة، وتضم أنتريه وطاولة اجتماعات صغيرة ومكتبًا ضخمًا مزينًا بالتحف الصغيرة وأباجورة، يجلس خلفه سيادته مرتديًا قميصًا أبيض مشمر الأكمام، وربطة عنق غير محكمة، وفوق أنفه نظارة مذهبة الإطار يتصفح كتابًا ضخمًا. تصنع الانشغال به غير شاعر بوجودي الدخيل في فضائه، وكأنه لا ينتظر حضوري، فتوقفت في مكاني ريثما ينتبه إلى وجودي، فلما طال انتظاري تنحنحت فحانت منه نظرة نحوي من خلف نظارة القراءة، استردها وهو يغلق الكتاب وينزع النظارة، مشيرًا إلي بالجلوس.

- لا أحد يفلت من الهجوم، ومهما قدمت فستجد من يُنكر عليك إنجازاتك.. فلنأخذ هذا الرجل كمثال - ثم أشار بيده إلى الكتاب المغلق أمامه على المكتب - ألم يحارب السخرة حين تولى إدارة السكك الحديدية؟ ألم يجُب البلاد شرقًا وغربًا من أجل نيل موافقة الدول العظمى على نظام المحاكم المختلطة، ليتخلص من بطش القنصليات؟ ثم ما الذي ناله بعد كل هذا إلا الهجوم والتخوين واتهامه – وهو الوطني – بأنه المعبِّر عن المصالح الإنجليزية!

تُرى كم أنفقت من وقتك في حفظ هذه الأسطر قبل أن تتلوها أمامي الآن؟

- هل تصدق حقًا المذكرات؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن صاحب المذكرات لن يلوث اسمه بإلصاقه بالنقائص، هل تتوقع أن تجد من يقول عن نفسه إنه كاذب أو سارق أو قاتل؟ حين تتحدث عن نفسك لا بُدَّ أن تصورها كملك مُنَزَّل من السماء.

ارتبك قليلاً ثم قال:

- أليس المذكور هنا من أحداث حقيقيًا؟
- نوبار باشا كتب مذكراته بين عامي ١٨٩٠ و١٨٩٤ أي بدأ فيها وهو في الخامسة والستين من عمره ليحكي أحداثًا وقعت في الفترة من عام ١٨٤٢ إلى عام ١٨٧٩، وفي حال افترضنا صدقه، فهل تظن أن رجلاً في الخامسة والستين من العمر قادر على استرجاع الوقائع والأحداث - بأدق تفاصيلها - التي مرت به، منذ ما يقرب من الخمسين عامًا؟!
- ولِمَ لا؟ أنا أذكر كل ما مررت به في حياتي، بإمكاني أن أحدثك عن يوم ولادتي إن أردت. وهذه هبة من الله، تلك الهبات التي يختص بها عباده فتؤهلهم إلى المراتب العليا.
هكذا إذًا، المسألة ليست نوبار باشا، أو اصطناع الثقافة.
نهض عن مكتبه واتجه بخطوات وئيدة إلى المقعد المقابل لي حتى جلس وهو يقول:
- التاريخ يحتاج إلى تخليد ذكرى العظماء الذين حققوا الإنجازات، وبنوا نهضات بلادهم.
- التاريخ لا يخلد إلا المستبدين.
فقال بنفاد صبر:
- وهل تظن أني مستبد؟
- ماذا تظن أنت؟
نهض عن مقعده وتمشى في الغرفة وهو يقول متباهيًا كممثل يؤدي دوره على المسرح أمام الجمهور الذي حضر خصيصًا من أجله:
- ليس المهم هو ما أظنه، المهم هو ما يظنه الشعب.
تصفيق حاد.
- الشعب يقدس المستبدين.. هتلر، ستالين، موسوليني، نابليون.. كل هؤلاء المستبدين استحلوا دماء الأبرياء، وفي النهاية قدستهم شعوبهم.
فقال بانفعال واضح:

- لو كنت مستبدًا كما تقول لخلعني شعبي.
- الشعب لا يخلع المستبد إلا حين يحس بضعفه.
- كوني حاكمًا قويًا لا يعيبني.
- كونك حاكمًا لا يعطيك الحق في أن تكون مستبدًا.
أدار لي ظهره، وتنفس بصوت مسموع، ثم قال دون أن يلتفت:
- أخرج من مكتبي.
تسمرت في مكاني لحظات، ثم نهضت، وفتحت الباب فصحبني من كان بانتظاري.. إلى غرفتي مجددًا.

(٥)

عدت إلى سجني وبقيت فيه ليومين آخرين، قبل أن يعود الشبح مجددًا في الصباح فيختار لي بدلة كحلية اللون، تركها على السرير ثم انصرف، ارتديتها فعاد ليتحقق من ربطة العنق وأزرار الأكمام، ثم انصرف مجددًا وحضر من رافقني إلى سيارة الرئيس، حيث جلست على الكنبة الخلفية إلى جواره صامتًا.

مضت السيارة تشق طريقها بين الطرقات الخالية على عروشها، تحوطها الدراجات النارية ويتقدمها وخلفها سيارات الحرس من أمن الرئاسة والمخابرات وغيرهم.

لِمَ كل هذه الضوضاء؟ لِمَ كل هذا الخوف إن لم تكن مستبدًا؟! أرواح آلاف الضحايا الذين قضوا في سجونك ومستشفياتك تلاحقك، لن تمنعها جيوش الحراسة وسياراتك المصفحة، ستطاردك في نومك ويقظتك، ستقتص منك وإن لم تقتلك.

حينها التفت نحوي بغتة، حتى ظننت أنه يسمع أفكاري.

توقفت السيارة أخيرًا أمام مقر الحزب الرئيسي؛ حيث وقف أمين الحزب

ينتظر قدوم ولي نعمته، وما إن رآه حتى انحنى مصافحًا، ثم نظر إلي مستفهمًا فلما لم يُحِر جوابًا تقدم كلينا عبر بوابة الحزب الرئيسية داخل أروقة الحزب، حتى وصل بنا إلى قاعة توقف أمام بابها ليفسح الطريق أمام سيادته للدخول.

دخل القاعة فدخلتها بدوري وتبعنا أمين الحزب الحائر، ثم واحد من مرافقي الرئيس جذب مقعدًا ووضعه خلف مقعد الرئيس إلى اليسار قليلاً، ثم أشار إلي بالجلوس، ثم جلس أمين الحزب واثنان آخران من القيادات أعرفهما كما يعرفاني.

كانت القاعة بسيطة وتقليدية كالمبنى كله الذي شُيد منذ سنوات حكم الرئيس السابق واستوعب الحالي بين جدرانه دون امتعاض.

بدأ السيد أمين الحزب في عرض إنجازات الحزب خلال السنوات السابقة، واستعرض المحاور التي سيجري العمل عليها خلال السنوات القادمة.. كالعادة، يتحدثون عن دولة لا نسكنها، بل هي غير موجودة أصلاً. والرئيس يوصي بمحدودي الدخل بنبرة عاطفية أجبرتني على مقاومة انهمار دموعي.. هل يصدقون أنفسهم؟!

قبل هذه اللحظة، كنت أحسبهم يخدعوننا نحن فقط، وكان ذلك أهون وأخف وطأة مما أراه الآن، إنهم يصدقون أكاذيبهم، تمامًا كما صنع الكفار أصنامهم فعبدوها، ولما جاعوا أكلوها.

انتهى الاجتماع الذي غفوت في أثنائه بضعة مرات من فرط الملل والتكرار واستهلاك الكلمات المبتذلة، ثم غادرت القاعة بصحبة الرئيس الذي ظل صامتًا طوال رحلة العودة إلى القصر، فلما وصلنا اتجه نحو المسجد الملحق بالقصر وتبعه إلى الداخل خاصته من الحراس والموظفين، وكان الإمام في انتظار سيادته، فلما رآه أذن للصلاة، هل هذا موعد صلاة الظهر، أم أنه موعد صلاة الرئيس؟

أدينا صلاة الظهر متجاورَين، جنبًا إلى جنب، أشعر بعمق أنفاسه وأسمع

همهماته المبتهلة بالدعاء لرب العالمين.
تخيل يا فخامة الرئيس المعظم أن ربك هو ربي، خالقك هو خالقي، فلمَ استكثرت علي أن أكون أخًا لك في أسرة الإنسانية، أحيا كما تحيا، وأموت حين يبلغني الأجل، لا حين تقرر أنت، أو رجالك طرد روحي من عالمكم، كي يستقر لكم الحكم، ويدوم لكم ولذريتكم من بعدكم عرش البلاد ومُلك العباد.
حين انتهينا من أداء الصلاة، التفت بنصف وجهه إلى الحرس عن جانبه فانصرفوا جميعًا، وتبعهم الإمام إلى خارج المسجد.
أطرق قليلاً ثم تحدث بنبرة تشق طريقها من بين ضلوعه قائلاً:
- وإن كنت مستبدًا.. (ثم التفت بوجهه نحوي).. أطلب فرصة للإصلاح.
بدا صادقًا وهو ما أقلقني، لكني صمدت أمامه مجيبًا:
- ألم تكفك الفرص التي نلتها طوال تلك السنوات؟
أشاح بوجهه بعيدًا عني وهو يجيب:
- أردت لهذا البلد الأفضل، فتخلى عني الجميع، حتى المثقفون من أمثالك، يطيب لهم الهجوم عليّ، لكني كلما طلبت منهم مد يد العون، أداروا لي ظهورهم، وولوا مدبرين.
صمتٌ، فالتفت نحوي وهو يقول منفعلاً، يسيطر على كلماته خوف حقيقي:
- لو تركت لهم هذا البلد لاقتتلوا على إدارته، حتى إذا ما صرع فريق منهم الباقين غرق بالسفينة فأهلك أهلها.
أجبته دون اكتراث:
- هم هالكون في كل الأحوال.
أزعجته إجابتي فعاد لإطراقته وعلا صوت أنفاسه. فحاولت أن أتلطف معه في الحديث قائلا:
- لمَ لا تثق في اختيار الشعب؟
- الشعب!
ثم ضحك مستهزئًا وهو يكمل:

- الشعب لا يُعوَّل عليه.
- أليس هذا الشعب هو ذاته الذي اختارك؟!
صمت قليلاً، ثم نهض، واتجه إلى باب المسجد مغادرًا. ثم انشقت الأرض عن واحد من سجانيّ واقفًا خلفي يستحث نهوضي ليوصلني إلى زنزانتي فانصعت إليه حبًا أو كرهًا.

(٦)

في المساء حضر الشبح مجددًا لينتقي لي بدلة رمادية وقميصًا أبيض وربطة عنق زرقاء، ثم انسحب وعاد ككل مرة، ليتحقق من جاهزية «المانيكان» للعرض، ثم انصرف فحضر من صحبني إلى باب مكتب سيادته؛ حيث رأيته جالسًا خلف مكتبه، يرتدي بدلة سوداء كاملة مستندًا بمرفقيه إلى المكتب.

تابع دخولي بنظراته فلما مثلت أمامه، لم يُشِر إلي بالجلوس، بل نهض عن مكتبه وخطا نحو النافذة المطلة على حديقة القصر، ثم توقف أمامها وشرد ببصره للحظات حسبتها ساعات، قبل أن يلتفت إلى قائلا:

- لقد قررت إجراء تعديل وزاري.

- .....

كان يثبّت نظره على وجهي ليرقب انفعالاته واختلاجاته، قبل أن يستطرد قائلا:

- وقررت اختيارك وزيرًا للإعلام.

لم أستطع كبح جماح انفعالي. كنت أقبل بالحبس راضيًا، لكن ليس المشاركة في هذا النظام، لن أكون دمية في يد الفرعون، لن أقدم تاريخي على مذبحه.

- وأنا رفضت.

برقت عيناه وهو يقول محتدًا:

- هذا تكليف!

- لن تثنيني قوة في العالم عن قراري هذا.

خطا نحو مقعده فارتمى فوقه متعبًا وأسند رأسه بين كفيه وهو يتمتم:

- هذا ما حسبته، دائمًا ما تهربون من خدمة الوطن.. تفضلون كتابة المقالات على العمل من أجل النهوض بهذا الوطن، ثم تلومون علي حين أستعين بآخرين أقل قدرًا.. الكلمات أسهل وأشد وقعًا من الأفعال.

تنهدت وأنا أقول:

- ليس الأمر كما تقول.. أنا لن أشارك في نظام أثبت فشله، يجب أن نبدأ من جديد.

رفع رأسه نحوي وهو يقول متحمسًا:

- وأنا أعطيك الآن هذه البداية.

ثم نهض عن مكتبه وهو يستطرد:

- ستكون المسئول الأول عن الوزارة الأهم، الوزارة التي تتعامل بشكل مباشر مع الشعب، الوزارة التي كما تقولون تروج الأكاذيب، صارت بين يديك.. طهّرها، احرقها، افعل ما تريد ولن أقف حائلاً بينك وبين قراراتك.

- الفساد المستشري الآن لن يتغير بتغير الوزير.. إنها منظومة كاملة.

- فكيف تعتمد إذًا في إصلاحك على الإطاحة برئيس الجمهورية؟!

ثم واصل دون أن ينتظر تعليقي:

- إن كان الفساد في الموظفين الأقل منزلة حاربهم، دك حصونهم، افضحهم أمام الرأي العام، قدمهم للمحاكمة.

كان يملك وجهة نظر، خشيت التعنت بـالإصرار على الرفض، وخشيت التحامق بالقبول، فآثرت المهلة.

- لك هذا، لكن أعلمني بقرارك في أقرب فرصة.

غادرت مكتبه عائدًا إلى زنزانتي؛ حيث تنتظرني آلاف الأفكار على بابها.

(٧)

لسنوات طويلة قضيتها معارضًا لهذا النظام، احتفظت باحترام الأقلية في هذا المجتمع، لا يقرأ مقالي في الجريدة المغمورة إلا عدد بسيط من القرَّاء، لا أظهر في القنوات الفضائية إلا لمامًا، فأنا ضيف غير مرغوب فيه. لم أكتسب شهرتي هذه إلا من محاربة النظام لي، ولو أنه غض الطرف عني لما انتبه إلى وجودي أحد على هذا الكوكب.

لم أنل من التقدير – قليلاً أو كثيرًا - ما أستحقه. ضاع العمر وهرِمَ الجسد، وسأفنى اليوم أو غدًا مغمورًا غير ذي قيمة تذكر، لن يتذكرني أحد، ولن يبكيني أحد.

أنا أستحق هذه الوزارة، فهي اعتراف متواضع بتاريخي الذي أفنيته من أجل هذا البلد، إنها المرة الأولى التي يتجه فيها الكرسي إلى من يستحقه فعلاً، فإذا دفعته بعيدًا، فمن ذا يتلقفه إلا الفاسدين والمنافقين؟

علي أن أقبل المنصب، من أجل الوطن.. ومن أجلي.

طرقت الباب، ففُتح لي عن واحد منهم يسأل عن طلبي، فأخبرته برغبتي في لقاء الرئيس فطلب مني الانتظار وانصرف.

بعد ربع ساعة حضر الشبح وانتقى لي بدلة سوداء وقميصًا أبيض وربطة عنق سوداء، شعرت في أثناء ارتدائها بجلال المنصب وقد توج هيئتي.
كانت التاسعة مساءً، وكان الرئيس في هذه الساعة معتادًا على لعب الشطرنج بصحبة واحد يختاره من الوزراء، لكنه هذه المرة اختار أن يلعب معي.
أبلغته بقراري في رزانة اجتهدت في ادعائها:
- لقد قبلت المنصب.
ابتسم ابتسامة لم أفهم مغزاها، لكنه على كل حال نهض من مكانه، وصافحني وهنأني بحرارة.
أحسست بصدقه، وقهرت عاطفة تنمو نحوه بداخلي.
دعاني للجلوس لمشاركته اللعب فقبلت. هذه هي المرة الأولى التي أجلس فيها معه رأسًا برأس. حتى وإن كان هو الرئيس وأنا الوزير، ففي النهاية كل منا جزء من الإدارة ذاتها.. مهلاً، ماذا؟!
جلست محتميًا خلف جنودي البيض، وهو أمامي يرعى جنود الظلام، لم أكترث للعبة، ظننت أني اعتدتها منذ نعومة أظفاري، فلم يستغرقني الوقت طويلاً قبل أن أضرب ضربتي القاضية.
- كش ملك.
ابتسم ساخرًا، وهو يقول:
- يجب أن لا تستهين بالملك، فهو لم ينل هذه المكانة ولم يحرسه كل هؤلاء من فراغ.
تمكن من الإفلات هذه المـرة.. أخطأت تقدير خصمي، فهو ليس بهذه السذاجة التي تصورتها.
لكنه لم يمهلني طويلاً.
- مات الوزير.
وجفت هنيهة، وأحسست بقشعريرة قد سرت في جسدي، فاعتذرت عن إكمال اللعب وطلبت الإذن في الانصراف، فأذن لي بإشارة من يده ودون أن

ينهض من مكانه ليصافحني.

في اليوم التالي جلست بانتظار طلبي بلا جدوى، وحين حان موعد طعام الغداء أحضروا لي عدسًا، وقصتي مع العدس طويلة، باختصار لا أطيق رائحته، بل مجرد رؤيته. بالأمس فقط كنت أتناول أشهى الأطعمة وأحبها إلى نفسي، والآن.. العدس؟!

حين غضب الله على بني إسرائيل أرسلهم إلى مصر ليأكلوا من عدَسها.. هل ألاقي المصير ذاته الآن؟

انتظرت حتى المساء لعله يطلب رؤيتي، لكنه تجاهلني، في اليوم التالي حضر العدس مبكرًا، في طعام الإفطار، فالغداء، ثم العشاء، ومضى يوم آخر وثالث.

لم أطق الانتظار أكثر من ذلك فطرقت الباب أطلب مقابلة الرئيس، فأجابني واحد منهم بلهجة جافة:

- لا يمكنك ذلك الآن.

انفعلت وحاولت توبيخه فدفعني بيده حتى كدت أسقط وأرتطم بمائدة الطعام. نهضت مستثارًا بغضبي فطرقت الباب مجددًا وعلا صوتي بالصراخ، فحضر رجل أكبر سنًا، بدا قائدهم خاطبني بنبرة هادئة حكيمة:

- الرئيس لا يستطيع مقابلتك الآن.

- ولِمَ لا؟

- لأنه يتدرب على خطابه، وحين ينتهي سأخبره برغبتك في مقابلته.

ثم انصرف.

في البداية ظننت تدرب الرئيس على الخطاب يعني أنه يقرأه، لكني علمت فيما بعد أنه يتدرب عليه فعليًا، وهذا التدريب يشمل بروفة يتمرن فيها على الإلقاء والحركات، والجُمل التي يتوقف عندها، وتغيير نبرات صوته بين الجملة والأخرى وغيرها.

هذا ما كان يفعله هتلر، فقد أثرت فيه عروض الأوبرا كثيرًا فاقتبس من حركاتها ما يلهب به حماس جماهيره المتحفزة لمزيد من الدماء.

مضى اليوم دون أن يفكر في طلبي، وفي فجر اليوم التالي اقتحم الغرفة عدد من الرجال قيدوا يدي وغطوا وجهي بالكيس القماشي إياه واقتادوني عبر ممرات وطرقات لم أميزها، حتى ألقوا بي داخل سيارة أقلتني إلى مكان بعيد، وحين رفع الغطاء عن رأسي وجدتني داخل سجن حقيقي.
زنزانة ضيقة لا تتسع لي ممددًا، منفذ واحد للهواء والضوء يحجب كليهما.

***

أيها الإخوة المواطنون..

***

خلال الأيام السابقة اعتادت الصحف أن تنشر بكثافة الأخبار التي تتحدث عن التعديل الوزاري المرتقب، الذي ضم إلى جوار اسمي وزيرين آخرين، وبطريقة ما، استطاع الجميع أن يربط بين الأسماء الثلاثة والولايات المتحدة الأمريكية.
فالأول وقد عمل سفيرًا لمصر لدى الولايات المتحدة، مرشح للخارجية، والثاني الذي عمل بأحد بنوك الولايات المتحدة، مرشح للمالية، والثالث - وهو أنا - عميل أمريكي أثبتت الصحف مؤخرًا أنه تقاضى عدة مبالغ من جهات أمريكية، وأخرى غير أمريكية جعلتها الصحف أمريكية لتدعم حجتها.

***

إن مصر لن ترضخ لأي ضغوط خارجية، فمصر دولة ذات سيادة، لا يحق لأحد أن يؤثر على استقلالية قراراتها، من أجل مصالحه الخاصة.

***

صرت حديث الصحف والفضائيات والمقاهي، والأخيرة أعظم أثرًا.
ومن هنا انطلقت الحملات الشعبية عبر الفضائيات لجمع التبرعات، للاستغناء عن المعونة الملعونة، وهب الناس من كل فج عميق ليلقوا لعناتهم على وزراء أمريكا التي تريد فرضهم على الدولة لتتحكم بمفاصلها.
وثار المثقفون وخرجوا في مسيرة حاشدة تضم نخبة الفن والأدب والإعلام إلى

مقر السفارة الأمريكية ليعلنوا رفضهم لخادم أمريكا (يقصدونني بالطبع).
وأخيرًا.. انتصر الرئيس لإرادة الشعب، فأطاح بالوزراء الثلاثة وتراجع عن التعديل المزعوم، ثم أمر النائب العام بالتحقيق في المبالغ التي تقاضيتها من الخارج، تخيل!
وهكذا أطاح بي في أقل من أسبوع، ليس فقط من مقعد الوزارة، بل من مقعد المعارضة. فقدت تاريخي واحترامي ذاتي قبل كل شيء.
وفي المقابل، نال هو كل شيء، وصار بين عشية وضحاها البطل القومي الذي يصد عن الوطن خطر التدخل الأجنبي، ويجمع تحت لوائه كل طوائف الشعب التي استوت بفضله في بؤسها، وعلى رأسهم المثقفون.

***

حفظ الله مصر

***

(٨)

ما زلت أذكر المرة التي اختطفني فيها رجاله قبل أن يجردوني من ملابسي ويجبروني على العودة عاريًا. حينها لم أكن أشعر بالخجل، كنت أثق في أنه حين يفعل ذلك فإنما يعري نظامه الهش، لكني الآن أشعر بالخجل.

لم أجد بُدًا من تناول العدس، فنفسي الضعيفة عجزت عن الإضراب عن الطعام، ثم من يأبه الآن بإضرابي؟ ومن يعلم بوجودي هنا؟ إنهم يظنونني في أمريكا!

لَمَ لمْ أستسلم للموت؟ ما زلت جبانًا متمسكًا بالحياة.

في اليوم التالي منعوا عني الطعام، واستمر هذا الحال لمدة ثلاثة أيام كاملة، كنت أتلوى في زنزانتي من فرط الجوع، وأتذكر أيامي الأولى في القصر، حين كان الطعام كما تشتهي نفسي.

في اليوم الثالث أحضروا لي كبدًا نيئة وكوبًا من الدماء! قذفت بهما الحائط ثم سقطت أمامهما أتأملهما وأفكر.. ألم يكن من الأفضل أكلهما؟ بكيت لما هانت نفسي إلى هذه الدرجة، وفقدت الوعي.

أيقظني الماء الذي ألقاه على وجهي واحد منهم بدلو في يده اليمنى، فلما

اطمأن على حياتي، انصرف.. فعدت إلى البكاء.
في اليوم التالي أحضروا لي مجددًا كبدًا نيئة وكوبًا من الدماء، تغلبت على تقززي وانقضضت على الطعام كإنسان بدائي لا يعبأ بالمحرمات.
لم أكد ألتهم شيئًا منه حتى ظهر أمامي واحد يشبه حراسي في سجني القديم، انتزعني من أمام وجبتي ثم جذبني من ذراعي إلى خارج الزنزانة؛ حيث تسلمني آخرون، كبلوا يدي وغطوا رأسي، ثم ساروا بي في رحلة جديدة.
حين نزعوا عني الكيس القماشي كنت في سجني القديم، الغرفة الصغيرة ذاتها، والشبح واقف أمامي، انتقى لي قميصًا وبنطلونًا ثم خرج ولم يعد بعدها ليتحقق من هيئتي.
صحبني واحد من حراسي عبر الممرات إلى مكتب الرئيس، ثم توقفت أمامه أنتظر الإذن في الدخول، كنت متعبًا وجائعًا، ولما أُذن لي بالدخول صحبني اثنان من الحراس هذه المرة وقفا خلفي مباشرة متأهبين لأي رد فعل مفاجئ.
قال دون اكتراث:
- سأعطيك فرصة أخرى.. يمكننا أن نبدأ من نقطة البداية.. من اللحظة التي عرضت عليك فيها كتابة المذكرات.
ثم نهض عن مقعده وخطا تجاهي بضع خطوات وهو يقول:
- إن قبلت فسيعود كل شيء كما كان.
لم أكن بحاجة للتساؤل عن عاقبة الرفض. أجل، قبلت. لم يكن أمامي من خيار آخر، أو هكذا تصورت.
وهكذا بدأت جلسات حَكْيِه أكاذيبه، منذ اللحظة السوداء التي أطل فيها على الدنيا من كوة اتسعت تدريجيًّا لتلفظ جسده الضخم، مرورًا بأيام اجتهاده وتميزه في الكلية الحربية وصولاً إلى اللحظة الحالية.
ولمَّا انتهى من سرده، عكفت على صياغتها لأيام طويلة، عملت فيها ليل نهار متعجلاً اللحظة التي أنتهي فيها حتى أغادر هذا السجن وأسترد حياتي مجددًا.

حين أنهيت عملي فوجئت بالشبح وقد عاد من جديد، ومعه ملابسي التي حضرت بها إلى القصر، تأملتها كذكرى بعيدة من الماضي السحيق.

أراني الآن وقد جرفني الموج بعيدًا، أتلفت باحثًا عن الشاطئ فلا أرى له أثرًا، أصرخ في هلع طلبًا للنجدة، فيظهر في بدلة سوداء أنيقة ونظارة سوداء تخفي انفعالات وجهه يرمقني بوجه جامد، يتأملني للحظات أصارع الموج، وأتوسل إليه كي يمد لي يده، فيدير لي ظهره عائدًا.

ارتديت ملابسي وحضر مرافقي، فتبعته في الرحلة الأخيرة عبر الأروقة، ثم انتظرت أمام باب المكتب حتى أُذن لي فتقدمت وخلفي مرافقيّ.

كان واقفًا تحوطه هالة من الهيبة والجلال ألقت بالرجفة في قلبي الضامر، وبإشارة من أحد مرافقي امتثلت للطريقة التي أملوها علي في وقت سابق لتقديم المذكرات إلى سيادته، فجثوت على ركبة ونصف وأخفضت رأسي ورفعت يدي بالمذكرات إلى أعلى.

اقترب مني بوجه جامد، حتى إذا ما صار في مواجهتي، انتصب في شموخ وخيلاء، ورمقني بنظرة فيها من الكبرياء الشيء الكثير، ثم ابتعد وهو يقول بينما أنا على الحالة ذاتها:

- هل كنت تظن أن الله اصطفاك؟ أنت لست نبيًا يا داوود، هكذا نحن معشر البشر، ندعي الملائكية، لكننا ننهار أمام أول اختبار حقيقي، فنستعين عليه بشيطاننا الخاص.

ثم خطا عائدًا ليقف مجددًا في مواجهتي، ثم أمسك بالمذكرات، فقلبها بين يديه محتقرًا، وخطا نحو المدفئة في جانب الغرفة، وألقى عليها نظرة أخيرة قبل أن يقذف بها إلى النار، ووقف يتأملها وهي تحترق.

هكذا نالت ما تستحق، ونلت أنا ما أستحق، فمتى ينال هو ما يستحق؟ كل شيء بأوان.

بإشارة من يده صرفني من مكتبه دون كلمة شكر أو وداع، هكذا انتهى كل شيء بالنسبة له، وظننت أنه كذلك بالنسبة لي.

خرجت من غرفة المكتب وكان بانتظاري عدد من الرجال، كبلوا يدي وغطوا وجهي، وصحبوني عبر الأروقة إلى سيارة وضعوني فيها وانطلقوا بي.
توقفت السيارة أخيرًا ودفعوني عبر السلم إلى أعلى، لم أجهد عقلي بتخمين المكان، فقد استوى لدي حينها كل شيء. دفعوا بي عبر باب غرفة ما، ثم فكوا قيدي وانصرفوا.
بقيت للحظات على حالي هذه قبل أن أنزع عن رأسي الكيس القماشي، فإذا بي داخل غرفة مكتبي في شقتي.
هكذا عاد بي إلى نقطة البداية، يحسب كأن شيئًا لم يكن.
تأملت الغرفة من حولي، أجل.. اشتقت إليها واشتقت إلى تفاصيل حياتي السابقة، لكنها بشكل ما لم تعد ملكي، صرت غريبًا عن هذا المكان، شيء ما بداخلي قد مات. إحساس بالغربة والوحشة في بيتي.
استلقيت ممدًا على أرضية الغرفة، وبقيت هكذا لساعات طويلة، ثم نهضت في الصباح وجلست إلى مكتبي، فسجلت كل ما هو بين يديك الآن.
والآن يا صديقي.. لقد انتهى كل شيء.. فحين تصلك هذه الأوراق أكون قد غادرت هذه الدنيا، لقد متُّ قبل الآن حين مات تاريخي، واحترام الناس لي، حين لوثت ثوبي الأبيض بالتحالف مع الشيطان.
جُل ما أطلبه الآن هو أن تعلم - أنت فقط - أن صديقك بَشَر، سقط فريسة بين يدي الشيطان، وها هو الآن يقتل نفسه لعله يتطهر من ذنبه.

القسم الثاني

المهدي

V3

(١)

طلع الصبح على القرية الساكنة، ففوجئ بأهلها وقد باتوا ليلتهم بين شوارعها، لم يتحرك واحد منهم إلى أرضه، ولا عمدت واحدة من النسوة إلى إطعام الدجاج، الذي اجتمع حول الديك متسائلاً عن سر امتناعه عن الصياح هذا الصباح!

والحق أن أهل القرية قد عرفوا هذه الليلة معنى الأرق، الذي لم يختبروه في أي وقت سابق من أيامهم الروتينية المعتادة، والفضل في ذلك يرجع إلى الفتى، الذي قبض عليه خفر العمدة وساقوه إلى سجن الدوَّار في وقت متأخر من الليلة الماضية.

لا.. ليس الفتى هو من أفزع نومهم، ولا من قض مضاجعهم، فقد استيقظوا على أنين الفتى الذي سحلوه على طول الطريق المؤدي إلى الدوار.

لم يكن الفتى ليصرخ أو يستغيث، فهو يعلم أن لا مغيث له، منذ بدأ أهل القرية يتحاشونه بادئ ذي بدء، ثم يرجمونه بألفاظهم في غدوه ورواحه، ثم يستحلون داره ومتاعه.

كان يعلم باقتراب هذه الليلة، لكنه لم يفر من مصيره، لماذا؟ هو لا يعلم إن

كان هذا قرارًا قد اتخذه، أم قرارًا كان ينبغي ألا يتخذه.. هو فقط استسلم لمصيره، بل هو لم يؤمن بحتمية هذا المصير، على الرغم من كل النذر التي سبقته، فقد كان يعول على القيم التي من أجلها يقف الآن أمام مولانا أسيرًا وجريحًا، وخائر القوى، لكنه مع ذلك يصر على أن يقف أمام سجانيه منتصب القامة مرفوع الرأس.

ومولانا هذا ليس مجرد إمام للزاوية المقامة في الطرف القصي من القرية، ولا يرتادها إلا قلة من أهل القرية، ليس من بينهم العمدة. فهو رجل في العقد السادس من عمره، استحق هيبته من هيئته الأزهرية، وحرصه على أناقته، وصلة النسب التي تربطه بالعمدة.

وهو رجل طويل القامة، ضخم الجثة، له أنف أفطس وحاجبان كَثَّان، ولحية مشعثة يحرص دومًا على تهذيبها. حفظ القرآن في كُتَّاب القرية، على شيخ كان ينذره بسوء العاقبة، جزاءً وفاقًا لفشله وإهماله حفظ آيات الله، لكنه على كل حال أجازه بعد فترة من الزمن، ربمًا ضجرًا بالفتى. ثم عمل بعدها مقرئًا يأكل على موائد الأفراح والمآتم، إلى أن انفرد بإمامة المسجد بعد وفاة حميه، إمام المسجد الذي سبقه.

رشف مولانا رشفة من فنجان قهوته، ثم حدج الواقف أمامه بنظرة خلت من أي تعبير، ثم أكمل احتساء قهوته في صمت. في ذلك الحين كان العمدة جالسًا إلى جوار مولانا، ينقل بصره بين الاثنين، يود لو يقول شيئًا يعلن به عن سلطانه على البلاد والعباد، لكنه لا يتكلم إجلالاً لحضور مولانا، الذي فرض هيبته على كل من ضمهم المجلس.

ومجلسهم هذا ضم فيمن ضم؛ العمدة وشيخ البلد وعددًا من أعيان القرية، وقد اتفقوا، دون إعلان أو تبيان، على تفويض مولانا في أمر هذا الفتى الضال، الشارد بأفكاره، بعيدًا عن حظيرة الإيمان.

- ردِّد ورائي يا فتى: أشهد أن لا إله إلا الله.

قالها مولانا، فتعلقت الأنظار بشفتي الفتى.

- أشهد أن لا إله إلا الله.

سرت في عيونهم دهشة كالعدوى، فقد توقعوا جلسة أطول من هذه، وإثارة تليق بليلتهم الماضية، التي قضوها في انتظار هذه الجلسة الفارغة!

دهش مولانا أيضًا، وقد توقع هو الآخر جدالاً، أفرغ له وقتًا يليق به.. لكنه مع ذلك أكمل:

- وأن محمدًا رسول الله.

- وأن محمدًا رسول الله.

التفت مولانا بوجهه نحو العمدة، وكأنه يسأله: «فيم كان اجتماعنا هذا إذًا؟!»، وقد فهم العمدة ما يجول بخاطر مولانا، فتدخل موجِّهًا حديثه إلى الفتى:

- وما كان حديثك السابق عن إلغاء الدين؟

أطرق وصمت هنيهة ثم قال بنبرة هادئة تردد صداها داخل قاعة الدوَّار وسط صمت الجالسين:

- ما نطقت إلا بعبادة الإله الأوحد، وجمع الناس تحت رايته، بعد أن فرقتنا الأديان، ما حاجتنا إلى الأديان التي تسفك الدماء وتفرق بين الناس بغير حق، لقد أمرنا الله بعبادته لا عبادة الأديان.

كان يتكلم وهو يجول ببصره بين الجالسين، فلما انتهى ثبَّت بصره على مولانا الذي قال بهدوء:

- ما نطقت إلا كفرًا.

تشجع الفتى فقال:

- إن كان كفرًا فهو كلام، لا يقتل، ولا ينتهك الأعراض، أو يستحل الحرمات.. هو كلام، فما ضر الكلام؟ أأكون أنا المذنب لأني تفوهت بـ«كلام»، ولا يكون الحاج إبراهيم وقد ذبح ابنه لأنه اعتنق المسيحية؟! حين كان ابنه مسلمًا فقد كان يعبد الله، وحين صار مسيحيًا فهو أيضًا يعبد الله.. لِمَ قتله؟

صمتوا لمَّا صمت مولانا، فاستطرد:

- ألا يكون المقدِّس بولس مجرمًا وقد قتل ابنته المسيحية التي هربت مع المسلم كي تتزوجه؟ أتكون مذنبة لأنها أحبت، ويكون هو بريئًا لأنه قتل؟!

فاندفع صوت من بين الحاضرين يقول:

- بل هو مذنب ورب الكعبة.

فقال الفتى:

- لأنك تؤمن برب الكعبة فأنت تتخذ من رب الكنيسة عدوًا، أنت لا تنصر حقًا، ولا تدفع باطلاً، لكنك تنصر عشيرتك ضد أعدائهم.. أأكون أنا المذنب أم أنت؟! أأكون أنا المذنب أم أنتم؟!

فاندفع صوت آخر يقول:

- اخرس يا كافر.

وصرخ آخر:

- يا عدو الله.

- بل أنا حبيب الله.. أنا من يُعلي من قيمة الروح.. أنا من يرفع من شأن الإنسان.. أنا من يكره الدم والعدوان.. أنا من بسط يده أن هلموا يا أبناء قريتي، لا أديان، لا رسل، ولا إنجيل ولا قرآن، فقط عبادة ربنا.. الرحمن.. أما يكفيكم اسمه؟ أتحاسبون رسول الإنسانية؟ ألأني قلت النفس غالية، لا تقربوها؟!

فقال مولانا:

- إن أنت إلا فتنة، والفتنة أشد من القتل الذي تتحدث عنه.

- البيت المنقسم على نفسه ليس مغارة للصوص، إنه مجرد بيت منقسم على نفسه.*

فرفع مولانا يده إلى أعلى أن كفى، ثم قال:

- أنت الآن في حكم المُرْتَّد، فإما أن تعود إلى صوابك وإما أن تقتل.

فقال الفتى واثقًا:

- أما ما تدعوني إليه، فإني والله لا أفعله إلا وأن أكون قد فقدت صوابي، وأما

قتلي.. فإن قتلي لن يضيف إليكم إلا رقمًا في خانة ضحاياكم، لكن روحي ستبقى وسأعود يومًا ما، في صورتي هذه أو في صورة أخرى.

فقال صوت:

- يا فتى، أنقذ نفسك فإنك صغير، والحياة طويلة، وما كلامك الساعة إلا نوادر تتندر بها عند كِبَرك.

- أتراني أرضى بالدنية؟! ألكي أعيش لبعض عام؟! فسينتهي الأجل المقدر ذات يوم في الحياة الدنيوية.**

فعاوده القائل:

- يا ولدي.. إنها كلمة.

- وما الإيمان إلا كلمة؟ وما الكفر إلا كلمة؟ وما قتلي الساعة إلا كلمة، تفوه بها أحدكم فغدت أمرًا مفعولاً.

- حَسْبك، فقد اتخذت قرارك.

- وما قراري إن كانت الحياة لا تكون إلا باسترضائكم؟! إن المرء حين يقرر، إنما يقرر فيما يملكه، أما أنتم فتقررون في أرواح الغير ما تحبون، حتى يأتي غيركم فيقررون في أرواحكم ما تبغضون.. إن العرش لفانٍ، وإن النعش لباقٍ.

نهض مولانا وهو يقول:

- أظن أننا انتهينا هنا.

ثم التفت نحو العمدة الذي نهض هو الآخر وتبعه الحاضرون، قبل أن يكمل:

- تعلم ما يتعين عليك فعله.

فسأله العمدة:

- إلى أين؟

فأجابه مولانا وهو ينقل بصره إلى الفتى:

- إلى الحسين.

(٢)

أمر العمدة بأن يطاف بالفتى - فوق حمار - القرية، ليعلم الجميع بأن الكافر سيدفن حيًا عقابًا على كفره. والحق أن الفتى أظهر من رباطة الجأش ما لا يتناسب مع سنه الصغيرة، وقد كان حريًا به أن يبكي، أو يستصرخ قلوبهم عسى أن يرحموه بقتله، لكنه لم يفعل.

تابعه أهل القرية فوق حماره، الذي أُجلس فوقه معكوسًا، وكان مروره أمامهم بهذا الوضع مسافًا إلى هذا المصير الذي يعلنه خفير العمدة يعكس في نفوسهم ردود أفعال متضاربة، فمنهم من يتعاطف مع الفتى الغِر، ويتحسر على شبابه الذي سيواريه التراب، لكنه مع ذلك لا يحرك ساكنًا، ومنهم من يلعنه ويتبعه بأقذع الشتائم، محملاً إياه مسئولية كل ما آلت إليه القرية من فقر ومرض، فهو حتمًا عقاب من الله، أنزله بهم جزاء وجوده بينهم.

مر الفتى بنظره من فوق حماره على الحقول وقد اكتست بخضرة زاهية، فحدثته نفسه بأن الأرض هي ذاتها، إن أردنا بها خيرًا لكانت الخضرة، وإن أردنا بها شرًا لكانت المقابر. ليت أهل القرية يعمرون الأرض بالزرع، بدلاً من أن يعمروا المقابر بالجثث، ليتهم يُجرون فيها الأنهار بدلاً من أن يغرقوها

بالدماء.

أكمل الحمار مسيره يتبعه خفر العمدة، فمروا بشوارع القرية ثم خرجوا إلى الحقول، ثم تجاوزوها إلى الأرض الخالية التي أحالوها إلى مقابر، فلما انتهى بهم المسير إلى كوخ مصباح، وهو كوخ يقع على طرف المقابر بُني من بقايا الأخشاب، أنزلوه عن الحمار وترجلوا به إلى بابه، ثم ناداه واحد منهم، فخرج ملبيًا في صمت يليق بجار الموتى.

مصباح هو حانوتي القرية، وهو رجل في العقد الخامس من عمره، أسمر البشرة، نحيل الجسم، انحسر شعره، فكشف عن جبهة عريضة، له شارب رفيع، وعينان غائرتان، مظهره يخيف أطفال القرية، ويشبِّهونه بأساطيرهم التي اعتادوا سماعها من أهليهم لإخافتهم.

حين خرج إليهم مصباح حدجهم بنظرة حائرة، ثم قال بنبرة جافة:

- إنها المرة الأولى التي يأتيني فيها الميت، ففي كل مرة أنا من يذهب إليه!

فتبادل الخفر النظرات فيما بينهم، وقد حسبوا أن مصباح المنعزل في صومعته لم يبلغه خبر الفتى الكافر، ولا حكم العمدة بدفنه حيًا!

- وأنَّى لك أن تعلم أنَّا قد جئناك بميت؟! لعلنا أتينا للتفاوض معك أو استدعائك لميت آخر مسجَّي فوق سريره.

فقال مصباح بنبرة أخافتهم:

- إني أشم رائحة الموت.

فقال أحدهم وقد كان أكبرهم سنًا:

- حسنًا، لا داعي إذًا لإضاعة الوقت.. دعنا ننجز ما أتينا من أجله.

فقال مصباح بلهجة قاطعة:

- لن أدفنه حيًا.

فقال واحد منهم محتدًا:

- إنها أوامر العمدة.

فأجابه:

- لا عمدة هنا، هذه مملكتي، وأنا سلطانها.
فهم واحد منهم بضربه وهو يقول زاعقًا:
- لا تنسَ نفسك أيها المخبول.
لكن مصباح لم يحرك ساكنًا، واكتفى بأن نظر في عينيه نظرة عدل بعدها عما كان ينتوي فعله، فقال مصباح وقد استبد به الغضب:
- قلت ما عندي.
ثم عاد إلى كوخه، وأغلق الباب من دونهم.
تشاور الخفر فيما بينهم، واقترح واحد منهم العودة إلى العمدة لإطلاعه على موقف مصباح، لكنهم تراجعوا عن ذلك وآثروا الإذعان لمصباح، دون أن يثنيهم هذا عن تنفيذ المهمة الموكلة إليهم.
- افتح يا مصباح.
خرج إليهم مصباح وكان قد قرر في أثناء احتجابه التراجع عن قراره، دون أن يمس ذلك هيبته، فمهما كان من أمره، فهو لا يعدو كونه واحدًا لا قيمة له ولا وزن، وقد يقتلونه ويستخلفون من بعده من يشاءون، فيعبث بالموتى الذين تعهدهم برعايته إلى أن يبلغه الأجل.
- لن نجبرك على دفنه حيًا، لك منا ذلك.
صمت هنيهة ثم تابع:
- لكن دعنا نفعل ذلك نيابة عنك.
- لا شأن لي بكم، افعلوا ما تشاءون.
ثم تقدمهم إلى المقبرة الخالية، وصاحبهم حتى إذا ما فتحها أجفل لبكاء الفتى، وهمَّ بأن يعاود إغلاقها رأفة به، وقد رق قلبه إليه، وأحس بالجرم الذي يهم بارتكابه في حق هذا الفتى وفي حق نفسه وفي حق أولئك الأموات.
لكن الخفر لم يعطوه الفرصة، فقد تقدم واحد منهم ودفع الفتى المنهار إلى الداخل، ولما لاح من الفتى نزوع إلى المقاومة، تقدم اثنان آخران لمعاونته، حتى استطاعوا دفعه إلى المقبرة التي لا يزيد ارتفاعها على متر واحد، ثم

أسرع آخر بإغلاق الباب.

تابع مصباح ما فعلوه مذهولاً وقد فقد أي قدرة على المشاركة بروحه بالإيجاب أو السلب، فقد كان حاضرًا بجسده فقط في هذا الموقف، فلما أغلقوا الباب انتهره أحدهم صارخًا وقد كان يمسك بمقبض الباب مقاومًا دفع الفتى له، وصراخه:

- تحرك أيها الغراب وضع القفل حتى نرحل من هنا.

استرد مصباح وعيه، فألقى على القفل الذي بين يديه نظرة متأنية، ثم تقدم خطوة ووضعه في الباب، ثم همَّ بوضع المفتاح في جيبه، فقبض على يده واحد من الخفر متحديًا:

- لا، هذا المفتاح يخصنا.

فتملص مصباح من قبضته، وقال بنبرة حازمة:

- كل ما على هذه الأرض يخصني أنا، ارحلوا الآن ولا تعودوا إلا في أكفانكم.

(٣)

ومر عام..

واستقبلت القرية ذات صباح وجهًا غير مألوف لمن رآه.بدا صاحب الوجه شابًا في العقد الثالث من عمره، يخطو في جسد ضامر وثياب رثة، ولحية كثة، وشعر أشعث، يخيل لمن يراه أنه أمام شبح، أو شخص عاد لتوه إلى الحياة بعد الموت. إنه الفتى، ولا أحد غيره.

هكذا قال أهل القرية حين مر بهم عبر الحقول، وعبر البيوت، حتى إذا ما انتهى إلى دوار العمدة، كان قد تبعه كل من رآه، فتوقف أمامه، ورفع وجهه فدار به على النوافذ والشرفات، يحصي من احتشدوا لاستقباله مذعورين بعد أن سبقه إليهم نبأ رجوع الفتى من الموت، ثم صرخ بصوت دوى في أرجاء القرية:

- أنا المهديّ.. أنا المنتَظَر.

انتشر خبر بعث الفتى بعد موته انتشار النار في الهشيم، فسرت الأنباء بين القرى والنجوع المجاورة، فحضر الناس من كل حدب وصوب ليشهدوا بأنفسهم معجزة قل أن يجود الزمان بمثلها.

هكذا كان الأمر في البداية، مجرد معجزة، أو حدث خارق يصلح ليكون موضوعًا رئيسيًا في جلسات السمر المسائية، لكن الأمر تخطى ذلك حين ظهر للفتى أتباع من الفتيان اليافعين يؤكدون أنه «المهدي المنتظر»، ويؤمنون بدعوته التي تجمع الناس على عبادة الخالق دون فوارق. ثم تطور الأمر إلى أكثر من ذلك، فقاموا ببناء ما يمكن تسميته «المَقَام»، وهو بناء أشبه بالمسجد، مطلي باللون الأبيض، وله قبة. جذب إليه مزيدًا من الحجاج، وقد تبدلت نظرتهم من الدهشة إلى التضرع، فكانوا يستعينون به على قضاء حوائجهم، ومنهم من كان يطلب البقاء في كنفه، خادمًا يقبّل قدميه.

وكان العمدة حينها يرقب الناس وهم يتوافدون من كل حدب وصوب إلى المقام، ويحسب ألف حساب لانتقام الفتى، حتى استنجد بالمأمور، فأتى على رأس قوة مهيأة للقبض على دجال أو متشرد، لكنه فوجئ بأنصاره وقد احتشدوا للذود عن وليهم. فما كان منه إلا أن هددهم بالقتل أو السجن فما استكانوا! صرخ آمرًا بالاستسلام فما خضعوا. فأمر جنوده بإطلاق النار على الواقفين، ولما كان الجنود من أهل القرية والقرى المجاورة، ممن عرفوا عن الولي معجزاته، فقد خافوا وترددوا في تنفيذ الأمر.

حدجهم المأمور بنظرة قاسية مذهولة، وصرخ فيهم مذعورًا:

- أطلقوا النيران.

فما استجاب له أحد، فهمَّ هو بإطلاق النيران عسى أن يتحقق له مراده بعد سقوط القتيل الأول، لكن أنصار الفتى انقضوا عليه، وجردوه من سلاحه، ثم خلعوا نعالهم فانهالوا عليه ضربًا حتى تضرج وجهه بالدماء، وتمزق لباسه العسكري. ولما رأى الجنود ما أصاب مأمورهم، حاروا في ما يجدر بهم صنعه إزاء سخط الأهالي، فحاولوا جاهدين انتزاع المأمور من بين أيديهم، لكن بعد أن فات الأوان، فحملوه إلى المركز حيث لفظ أنفاسه الأخيرة، ولما بلغ الخبر معاون المباحث انهال على الجنود ضربًا، وهددهم بالسجن، بل بالإعدام جزاءً على تقصيرهم.

حينها حضر أنصار الفتى من قريته ومن لبى النداء من القرى المجاورة، فاقتحموا المركز دون مقاومة فأحرقوه، ولما رآهم الجنود، احتجزوا معاون المباحث داخل مكتبه، ثم أضرموا فيه النيران، وانتقلت عدوى النيران من مكتب إلى آخر حتى استحال المركز رمادًا تذروه الرياح.

فلما تحقق لهم ما أرادوا مَثَّلُوا أمام المقام، فخرج فيهم الفتى، في عباءة وعمامة بيضاوين، يمسك بإحدى يديه مسبحة خضراء طويلة، احتار من رآها في عدد حباتها.

قلَّب بينهم ناظريه بشيء من الزهو، ثم قال مخاطبًا إياهم:

- اليوم تقولون فتسمعون، لا سلطان لأحد عليكم من العالمين، أنتم إرادة الله، أنتم كلمته العليا، أجراكم في الأرض بمشيئته، ولحكمته. أعيدوا للسماء ما انتزعته الأرض، تنعموا بنعيم الأرض، وجنة السماء. الحق كلمتكم، والباطل كلمة أخرى تجري على ألسنة من عداكم. فأسكتوا كلمة الباطل، وأسمعوا كلمة الحق، تكن لكم الكلمة.

استقبلوا كلامه بالتكبير، وعبق الجو بحماستهم، فانتقلوا إلى دوَّار العمدة فأحرقوه، لكنهم عجزوا عن الإمساك بالعمدة الذي بلغه ما لحق بالمركز، ففر هاربًا قبل وصولهم.

وصادر الأنصار سلاح الدوَّار، بعد أن فر الخفر، فأضافوه إلى السلاح الذي صادروه من المركز قبل حرقه. واستباح أهل القرية ماشية العمدة، ومتاع الدوار، فظفر كلٌ بما ظفر، وأكبروا الفتى الذي أعاد إليهم ما قد سلبه العمدة بجبروته منهم.

وتوجه الفتى إلى دار مولانا، فوجد بابها مشرعًا على مصراعيه، فتقدم إلى داخل الدار عابرًا الفناء الصغير، يقلب ناظريه في الدار الخاوية، فلما دلف إلى الصالة وجد مولانا جالسًا في ركن منها يقرأ القرآن بصوت مسموع، ولما رأى الفتى، توقف عن القراءة ورمق الزائر بشيء من الازدراء، وقال ساخرًا:

- كيف وجدت القبر؟

فأجابه الفتى:

- لِمَ العجلة؟ انتظر حتى تعرف بنفسك.

فضحك مولانا هازئًا:

- هل ستسوق أتباعك من المختلين لإحراقي حيًا؟

- ولِمَ لا وقد دفنتني حيًا؟

فقال مولانا:

- هكذا هو الأمر إذًا.. لقد استبدت بك شهوة الانتقام، وتستغل في ذلك زمرة من المختلين، ممن لا هدف لهم أو قضية. أتذكر موقفك أمامنا في دوّار العمدة، حين تفوهت بهرائك القديم عن قدسية الروح، وعبثية الأديان؟

- ذاك كان الفتى، الروح الإنسانية الطاهرة.

وجلس خائر القوة مسندًا ظهره إلى الحائط المواجه لمولانا.

- والآن.. من أنت؟ حدثني عن هذا الواقف أمامي، الذي يزهق الأرواح وينشر الخراب.

فرفع إليه عينين حمراوين من الغضب ثم نهض مستعيدًا نشاطه، ومستردًا عزمه، وهو يقول محتدًا:

- هذا ما صنعتموه.

وقال مولانا متحسرًا:

- كنت نبيًا يدعو إلى السلام.. وصرت مسخًا يدعو إلى القتل!

- إن كنت تظنني نبيًا، فلِمَ لَمْ تؤمن؟ لِمَ لَمْ تدعني ودعوتي؟!

فقال مولانا:

- إن واجبي..

فقاطعه الفتى:

- واجبك. هذه هي الكلمة الحمقاء، التي تفوض الخلق في سلطة الخالق. باسم الواجب تقتلون، ولأجل الواجب تسجنون، وفي سبيله تعتدون.. لعنة الله على الواجب.

ثم همَّ بالمغادرة فاستوقفه مولانا قائلاً:
- قبل أن تذهب.. إن لي أمنية أخيرة.
فتوقف الفتى، والتفت إليه ثم قال:
- إنك لم تَسَلْني عن أمنيتي الأخيرة.. لكن، هاتِ ما عندك.
- أريد أن أفهم.. كيف تمكنت من البقاء على قيد الحياة؟
- لا يفل الحديد إلا الحديد.
فقال مولانا حائرًا:
- لكن.. أنا لم أفهم!
فابتسم الفتى وهو يقول:
- ستفهم.
واتجه صوب الباب مغادرًا حين انشقت الأرض عن رجل ملثَّم قفز أمام مولانا، حاملاً بيده سكينًا طويلاً لامعًا خطف بصر مولانا، قبل أن يكشف الملثَّم عن وجهه فيصرخ مولانا فزعًا:
- مصباح؟!

(٤)

وانتقلت حمى الحرق إلى القرى المجاورة، فقام أهل كل قرية بإحراق دوَّار عمدة القرية، وانتزع أنصار الفتى أسلحته، والعامة مواشيه وحُلِيَّه وما طالته الأيدي من الأثاث.

وقال الفتى:

- تسلحوا، فإن الفكرة غير المسلحة لا تملك الدفاع عن نفسها.

فجمعوا الأسلحة التي انتزعوها من «المركز» ومن دوَّار العمدة، فتسلح كل فرد منهم بسلاح، حتى صار المقام أشبه بالثكنة.

وقال الفتى:

- إن الأرض لكم، فاحرثوها، حتى يتنفس طين القاع هواء السطح.

ثم استقبل المقام الوافدون المسلحون من «مراكز» أخرى، أتوا ليقدموا فروض الطاعة والولاء، بعد أن أحرقوا ونهبوا «مراكزهم». حتى اكتملت «مراكز» المحافظة، فاجتمع الأنصار على الإطاحة بالمحافظة، وتهيأت النفوس للموت في سبيل الغاية، فخرجت قوة هائلة من رجال الشرطة لصدهم، لكنها سقطت أمام قوة إيمانهم، وكثرة عددهم، فكانت المحافظة من نصيب

أنصار الفتى.
سيطر الأنصار على مداخل المحافظة، وسرت الأنباء مع الهواء إلى المحافظات الأخرى، فاتقدت جذوة الرغبة في اللحاق بركب الفتى المخلص.
وقال مصباح للفتى - حين خلا إليه – متوسلاً:
- أوقفهم، إنهم مهووسون بالقتل.
فقال الفتى بنبرة حيادية:
- لم يعد هناك مجال للتراجع.. صار بيننا وبين ما نحلم خطوة.
فقال مصباح:
- هكذا يظن من مسه جنون العطش، كلما لاح له السراب، فيقول إن هي إلا خطوة، فيهرول حتى يعييه التعب، فيسقط وقد أعماه لهاثه عن البئر الرابضة على بعد خطوات.
- إيمانهم مرشدهم نحو غايتهم.
فقال مصباح متهكمًا:
- إيمانهم؟ أتظن حقًا أنهم مؤمنون؟ إنهم جماعة من المجرمين والمختلين المهووسين بسفك الدماء، لا إيمان لهم ولا غاية. ولا سلطان لك عليهم ولا ولاية.
ثم استطرد وهو يتجه صوب الباب:
- أخرج إليهم، قل لهم أنا وليكم ومولاكم.. توقفوا باسم إيمانكم، باسم قدسيتي.. وانظر ماذا يفعلون. سيحرقون عليك مقامك هذا، وقد يدفنونك حيًا كما دفنك الآخرون من قبلهم.. لكن حينها لن تجد مصباحًا يقودك من الظلمات إلى النور.
فأطرق الفتى، فتفحصه مصباح حائرًا، ثم اقترب منه وهو يقول:
- حدِّثني بما في نفسك.. أهي نيران الانتقام وقد أفلتت من سيطرتك؟ أم أن بك رغبة في ملك البلاد والعباد؟
فاستمر الفتى في إطراقه دون أن يُحِر جوابًا. فأمسك مصباح بذراعيه وأخذ

يصرخ فيه قائلا:
- أجبني.. من أنت؟
فتملص الفتى من قبضته، ودفعه في صدره فتراجع مصباح إلى الخلف خطوة أو خطوتين. وقال الفتى غاضبًا:
- تحدثني عن الموت يا رسول الموت؟! إن يديك مخضبتان بدماء مولانا، أتتهمني وتبرئ نفسك؟! إن كنت تبحث عن المجرم فانظر في المرآة لعلك تراه.
فتلجلج مصباح وهو يقول:
- كانت ثورة، وما فعلت ذلك إلا بدافع..
- دافع؟ تلك ذريعتكم التي تشرِّعون بها سفك الدماء، لقد قتلت فلانًا من أجل الدين، وقتلت فلانًا من أجل الوطن، وقتلت كذا من أجل كذا.. ألا يستوي القتل في النهاية؟ أليست كلها دماء؟
أطرق مصباح، وخطا نحو الخارج، ثم توقف قبل خروجه ليقول:
- إني بريء منك.
وفر مصباح هاربًا، فأرسل الأنصار في أثره واحدًا منهم فأرداه، بعد أن علموا بما كان منه. ولما بلغ النبأ الفتى لم يحزن ولم يستجوب أحدًا في مقتله.
وقال الفتى:
- إن ما تنشدون لَهُوَ أقرب إليكم من دياركم هذه.
وحدثه واحد من أنصاره وكان ذا حظوة لديه:
- إنك لن تزحزحهم ما لم تفضح عجزهم على الملأ.. استهدف العامة، فإن في ذعرهم مخرج.
فصمت الفتى هنيهة، ثم قال بنبرة حائرة:
- أأقتل أناسًا لم يجاهروني بالعداء؟!
- هم لم يجاهروك بالطاعة.
فتفكر الفتى وساد صمت قطعه بقوله:

- في سبيل الغاية، تهون أي وسيلة، ويا لها من غاية.
ولما آنس الأنصار من وليهم رغبة غير مُعْلَنة، شرعوا في تنفيذ دورهم فهاجموا العامة في أسواقهم، فأسقطوهم كالذباب، ثم فجروا الميادين والتكدسات السكنية، وعمت الفوضى، واكتست الشوارع بلون الدماء، وسادت البلاد حالة من الهلع.

(٥)

اضطر الجالس في القصر إلى استدعاء الجيش، فاحتلت الدبابات الشوارع وطوقت الميادين، وانتشر الجنود كأسراب النمل يحوطون كل ما يهم الدولة أو رجالها.

وما هي إلا أيام حتى كانت البلاد في قبضتهم، فداهمت قوات الجيش أنصار الفتى في كل وكر، ثم حشدوا قوة لمهاجمة الفتى في مقامه فأسقطوا رجاله وهدموا المقام، ثم نالوا مبتغاهم باعتقاله.

وتهلل العامة وطربوا للخبر، وخرج بعضهم للرقص في الشوارع، تحية للقائد المنتصر، الذي أعاد للبلاد أمنها وأمانها، ورفعت صوره فوق الأعناق في مسيرات جابت المحافظات، حتى خرج عليهم ذات مساء، معلنًا إسقاط النظام، وتولي الجيش مقاليد الحكم، وفرض الأحكام العرفية، واعتقال الرئيس تمهيدًا لمحاسبته.

ثم مثل الفتى أمام محكمة أخرى، وسلطة أخرى، استبدلت النسور بالعمامات فضحك الفتى مستهزئًا، فتحيروا في أمره، وسأله واحد منهم:

- ما يضحكك؟!

فأجابهم:

- لعل الأرض كروية.

فنهره آخر محتدًا:

- إنك تهين هيبة المحكمة.

فقال الفتى:

- لكم هيبة، ولهم هيبة.. فما لنا لا تطولنا إلا الخيبة أنى حللنا.

وقال آخر:

- حدثنا عن معجزتك.

فصمت الفتى هنيهة ثم قال:

- سأعود يومًا ما، في صورتي هذه أو في صورة أخرى.

وصدر الحكم بالإعدام رميًا بالرصاص في ميدان عام، واحتشد الآلاف من كل حدب وصوب ليشهدوا إعدام المهدي المنتظر.

ومنهم من حضر آملاً في سلام يعقب إعدامه، ومنهم من رجح فشلهم في قتله، ومنهم من حضر ليشهد نهاية العالم.

وقال قائد فصيلة الإعدام:

- ألك أمنية أخيرة؟

فقال الفتى:

- أمنية؟ وما نفع الأماني؟ إن الواحد منا لينام فيحلم بالقصر المَشِيد والعيش الرغيد، وهو لا يدرك أن جُل ما ينقصه لتحقيق حلمه هو أن يستيقظ من نومه.

ثم أحاط الجمع المتفرج بنظرة من عينيه وقال:

- لعلي أتمنى أن تفيقوا من سباتكم الطويل.

وقال قائد فصيلة الإعدام:

- أطلقوا النار.

اقتباسات

* كتاب «النبي» لجبران خليل جبران.

** مسرحية «الحسين ثائرًا وشهيدًا» لعبد الرحمن الشرقاوي.

القسم الثالث

أمل

(١)

الثانية ظهرًا.. يسير صاحبنا عائدًا إلى منزله، فيمر عبر شوارع القاهرة المختنقة، يقلّب نظره بين وجوه نكّستها الهموم، تفحصه نظرات الضباط ومن يظنهم ضباطًا، ومن يعملون لحساب كليهما.

في الثانية ظهرًا تُدهس الأحلام تحت أقدام الموظفين، حتى حلم البارحة.. ذاك الحلم الذي يناوشه طيفه منذ الصباح، فلم يفلح في صرفه عن التفكير فيه: زعيق الأطفال في زي المسوخ بتمجيد الجنود، أداء الناظر التحية العسكرية للضابط المشرف على المدرسة، حتى الضابط نفسه - بزيه وهندامه، والهيبة التي تفرضها مشيته العسكرية ونجومه اللامعة فوق كتفيه - فشل في صرفه عن التفكير في حلم الأمس.

في الثانية ظهرًا.. اعتاد ألا يفكر سوى في القيلولة، لكنه اليوم يخشى إن نام أن يطارده حلم الأمس مجددًا؛ لذا فقد قرر أن يُعَرِّج على المقهى لعله يجد في ثرثرات رواد المقهى، وحركة المارة ما يشغل باله عما يعتمل بداخله.

في الثانية ظهرًا.. إنه يذكر قصيدة اسمها «في الخامسة عصرًا»، لكنه لا يذكر

صاحبها، لعله الآن بصدد كتابة قصيدة أخرى يسميها «في الثانية ظهرًا»، ولِمَ لا؟

في الثانية ظهرًا..

يبكي رضا طول الرضا.

حين بلغ المقهى، لم يجد فيه سوى أهل الرضا، وأهل الرضا هؤلاء هم سكان الحارة الأصليون ممن تجمعهم صلات قرابة متشعبة ومتشابكة، فهم وحدهم من يجتمعون داخل المقهى في هذه الساعة التي يخلد فيها الباقون إلى النوم، إذ اعتاد هؤلاء الاستيقاظ في هذا الوقت المتأخر، بعد سهرة «الحشيش» التي يستضيفها عصفور فوق سطح منزله بشكل شبه يومي، فيتناولون طعام الإفطار أو يستريحون من قيظ الظهيرة وصداع الزوجات.

لم يكن أهل الرضا مجرد سكان، فالكل يذكر يومًا كان لهم فيه مُلك الحارة بما عليها، وما من ساكن إلا وقد اشترى مسكنه من أهل الرضا، أو ممن آل إليه المسكن من بعدهم.

يذكرون تلك الأيام بين الفينة والأخرى، ويسترجعون ذكريات العز والجاه، فيتحسرون على الزمن الذي ولى، فبدَّل حالهم على هذا النحو، يحاولون معرفة السبب، لكنهم يتصنعون تجاهله، إشفاقًا لحالهم الذي لا يحتمل المصارحة.

ألفاهم الأستاذ رضا جالسين بداخل المقهى كعادتهم في مثل هذا التوقيت، لكنه - وللعجب - وجدهم حائري البال مضطربي الوجوه، أكواب الشاي أمامهم لا يتراقص فوقها الدخان، ولا تمتد لها يد. ما بال هؤلاء؟ إن حدثًا من شأنه أن يقلب البلاد رأسًا على عقب لا يحرك فيهم ساكنًا، ولا يقطع جلسة سمرهم المسائية.

ألقى السلام فما جاوبه إلا صوت المعلم عصفور صاحب المقهى، أتبعه بإشارة من عينيه إلى مبروك القهوجي فحضر لتلبية طلبات «الأستاذ» - الذي اتخذ لنفسه مقعدًا بالخارج - وليتك تعلم ما يطلب الأستاذ.

أخرج سجائره، والتقط من بينها واحدة، ثم همَّ بإخراج عود ثقاب حين اقترب الحاج راضي العطار مادًا يده بالقداحة، فرمقه الأستاذ رضا بنظرة متعجبة قبل أن يسلم له زمام إشعال السيجارة.

جذب الحاج راضي مقعدًا وجلس إلى جواره دون أن ينطق بكلمة، ولبث على حاله تلك إلى أن حثه رضا على الحديث بسؤاله عن الحال.

- كنت قبل اليوم راضيًا.

أراد أن يحط عن كتفيه الحمل الذي يحمله منذ استيقظ صباح اليوم، بدلاً من أن يأتي الحاج راضي، ليضيف إلى همه همًّا آخر. لعله حلم آخر يا حاج راضي!

- بل كابوس.

حدجه رضا فزعًا، فهو واثق من أنه لم يقل جملته الأخيرة بصوت مسموع، ليعلق عليها الحاج راضي!

لكن الحاج راضي لم يتوقف أمام الأمر، بل لعله لم ينتبه له.

أشعل راضي سيجارة كان قد نسيها بين أصابعه، ونفث دخانها وتكلم:

- رأيته ليلة أمس، بوجهه الحزين، يطالعني من مكانه دون أن يتقدم مني أو يأذن لي بالتقدم نحوه.. لكن، أنا لم أكن مستعدًا للتقدم نحوه! الحق أني كنت خائفًا، لا أعلم لماذا بالضبط، لكني أحسست في حضوره بالخجل.

فقال رضا مأخوذًا بالحديث الذي دُفع إليه:

- عمن تتحدث يا حاج راضي؟ من ذا الذي رأيته؟

تنهد الحاج راضي، ثم التفت بوجهه ناحية رضا وقال:

- لا أعرفه.

ضحك عصفور الذي كان يسترق السمع إلى حوار الرجلين، وقال مقهقهًا:

- فقط احرص على تغطية إليتك في أثناء نومك.

فصاح الحاج راضي قائلاً في انفعال:

- على الأقل لا أتركها عارية في أثناء يقظتي يا ابن القحبة.

تغاضى عصفور عن السبة وتظاهر بالانشغال بمتابعة أعمال المقهى، وواصل راضي حديثه مع رضا.

- صِف لي الوجه كما رأيته يا حاج راضي.

شرد الحاج راضي ببصره مسترجعًا تفاصيل الوجه الذي رآه قبل أن يقول:

- وجه أسمر أرهقته الخطوب، لكن شعره الأسود يفضح صغر سنه. يرتسم الحزن في عينيه، وشارب يتربع فوق عرش فمه. وأنف أفطس.

فصاح مرتضى النجار:

- هذا والله ما رأيت!

وهتف مرضي الحلاق:

- وأنا أيضًا، ذاك الوجه الحزين يطاردني منذ الليلة الفائتة!

فصاح عصفور:

- إن هذا إلا سحر مُبين!

وقال راضي متوسلاً:

- أفتنا في هذا يا أستاذ رضا.

نهض رضا عن مقعده وقال:

- من قال: لا أعلم، فقد أفتى.

ثم انصرف عائدًا إلى منزله.

(٢)

في المساء، اجتمع الشمل فوق سطح منزل عصفور صاحب المقهى، وعصفور هو الراعي الرسمي للجلسة المسائية، فدوره لا يقتصر فقط على تمويل الجلسة بـ«الحشيش» ولوازم «الكيف»، لكنه أيضًا - وبشكل ضمني - يؤمِّن الجلسة من بطش «الحكومة».

رصَّ مرضي الحلاق «الحجر» الأول، وجذب نفسًا ليختبره، ثم أدار الجوزة كما اقتضت الأصول، فتبدأ دورتها بالحاج راضي العطار، وهو رجل في السبعين من عمره، لم يهزمه الزمن أو تدهور الحال، فهو بطبعه لا يحمل همًّا للدنيا، ولا يشغل باله بالتفكير في الآخرة، فالدنيا عنده نساء و«حشيش»، والآخرة صلاة الجمعة في «الحسين».

ثم تحطُّ «الجوزة» في المحطة التالية؛ حيث يستقبلها لدى وصولها مرتضى النجار، وهو رجل جاوز الخمسين، ماتت زوجته وهاجر أولاده فهو يعيش وحيدًا في شقته التي تعلو ورشته.

ثم تختم الجوزة دورتها عند عصفور، صاحب المقهى، والدخيل الأول على

الحارة، مبعوث المباحث.

ثم تعود بدورها إلى مرضي، الذي يستمتع بدوره الملموس في مزاج الآخرين. ومرضي رجل في أواخر الأربعين لم يُعرف عنه ميله إلى النساء، ولا إلى الرجال، هو فقط يستمتع بجلساتهم المسائية، وثرثرات الصالون، واختلاس النظر إلى الشرفات، فهو يجد في كشف ستر البيوت، وانتهاك خصوصياتها متعة لا يضاهيها شيء إلا «الحشيش».

قال مرتضى مهمومًا:

- يبدو أن الذي باعك هذه «الحشيشة» قد خدعك، إنها صنف مغشوش يخدعون به المراهقين.

فقال عصفور واثقًا:

- عيب عليك.

وقال الحاج راضي:

- المشكلة ليست في «الحشيشة»، المشكلة فينا نحن.

فأومأ مرتضى برأسه وهو يقول:

- معك حق.

فقال مرضي:

- لا تفسدوا علينا مزاجنا بالحديث عن ذلك الحلم مرة ثانية، أنا أحاول نسيانه.

فقال مرتضى:

- وهل وفقت في ذلك؟

فقال راضي متأففًا:

- يووووه، كفاك يا مرتضى.

فتمتم عصفور:

- أحلام وسخام.

ثم بصوت مسموع:

- إنه مجرد حلم.

فقال مرتضى:

- لا، ليس مجرد حلم.

فقال عصفور متهكمًا:

- إذًا، فماذا يكون يا سي مرتضى؟

رمقه مرتضى بازدراء دون أن يجيب، لكن راضي تدخل قائلاً:

- إنها إشارة.

فعقب عصفور ساخرًا:

- إشارة حمراء.

فقال راضي محتدًا:

- ذاك لون مؤخرتك يا ابن القحبة.

فانفجر عصفور ضاحكًا وتبعه مرضي، فضحك مرتضى رغمًا عنه، وانفلتت بسمة على وجه راضي المتجهم وهو يتمتم بسبِّهم.

رَصَّ مرضي «الحَجَر» الثاني، ودارت «الجوزة»، وهي في دورانها تدور الدنيا ولا تستقر على حال، ففي الدورة الأولى يتمجد اسم الرئيس في كل آن، وفي الثانية يتجلى المهدي، وفي الثالثة تزاحم الدبابات عربات الكارو، وأهل الرضا على حالهم من الرضا، الذي لا يتبدل مهما تبدلت الأيام، ومهما توالت الانتكاسات.

- لِمَ لا يسهر معنا الأستاذ رضا؟

سأل عصفور، الذي لا يمل تكرار سؤاله في كل جلسة.

فيجيبه مرضي:

- مثله لا يحتاج رأسه إلى «الحشيش»، فهو مسطول رباني.

وضحك وحده بعد أن أتم مزحته، وقال راضي:

- على الأقل نحتفظ بواحد منا مفيقًا للطوارئ.

(٣)

كان يتبختر في كلماته متأنقًا في قميص كحلي مقلم بخطوط بيضاء، وبنطلون كحلي من القماش، يقول فيتردد صدى صوته مدويًا:

مُعلق أنا على مشانق الصباح..

وجبهتي - بالموت - محنية..

لأنني لم أَحْنِها.. حية.

في اليوم التالي اجتمع شمل أهل الرضا في المقهى، يتناقشون في الحلم الجديد للرجل الذي يصر على مطاردتهم، حتى يذهب عنهم كل شعور بالرضا.

- الأمر جد خطير!

قالها مرتضى بأسى.

كان رضا في هذه الأثناء جالسًا على مقعده بالخارج، يصل إليه حوارهم دون أن يشارك فيه، هو يعلم أن لا مناص من الرجل النحيل.

هب عصفور واقفًا لمَّا تناهى إلى سمعه حلم الليلة المنصرمة، فهتف حانقًا:

- ما الحكاية؟! ما قصة هذه الأحلام التي تطاردكم فتذهب عنكم النوم والرضا؟! نورونا الله ينور بصيرتكم.

«هذا والله لو تعلم ما يريده منا. أن ينير بصيرتنا، أن يخرجنا من عبادة الرضا».

ثم استطرد بصوته الجهوري:

- أفتِنا في هذا يا أستاذنا!

أفرغ رضا ثمالة الكوب في جوفه، ثم نهض وهو يقول:

- الأستاذ لديه ما يكفيه.. تصبحون على خير.

فقال راضي:

- أتتركنا وقد كثرت علينا ذئاب الهم؟

- ما لي وهمومكم؟ يكفيني همي، وأنا به أولى.

وانصرف فتبعه عصفور حتى صارا بمنأى عن أن يُسمع حديثهما فاستوقفه متسائلاً:

- قل لي يا أستاذ.. ألا ترى في منامك ما يرونه؟

ثم مستطردًا:

- أود فقط أن أطمئن.

- أتراه أنت؟

فتلجلج عصفور وهو يقول:

- أنا؟ طبعًا.. طبعًا.

ابتسم رضا، وقال وهو يهم بالانصراف:

- تصبح على خير.

عاد عصفور إلى المقهى، فوجد مرضي الحلاق وكان بطبعه ثرثارًا يجلس إلى طاولة اثنين من طلاب الجامعة ويحدثهما عن الحلم الذي يطارده..

- أخبراني.. أتعرفان صاحب الوجه الحزين هذا؟

بدت الحيرة على وجهيهما، ولم ينقذهما إلا صوت عصفور صائحًا:

- دع الأستاذين وشأنهما يا عم مرضي، هما ليسا من زبائنك، ولا شأن لهما بأحلامك.

فقال مرضي:

- ربما يعرفان الرجل الحزين.

فقال مرتضى من مقعده إلى جوار راضي:

- لسنا بحاجة لأن نعرفه، فنحن نعرفه.

فالتفت إليه راضي، وهتف مرضي:

- إذًا قل لي من هو!

فأجابه مرتضى:

- لا أعرف اسمه، لكن وجهه بدا مألوفًا، ذاك الوجه الذي يُذكّرك بمجد ماضيك وأصالتك، وجه أجدادنا الأولين، وجه من قالوا لا.

فقال راضي وهو يشيح بوجهه عن مرتضى وحديثه:

- ذاك حديث مفترى.

فصاح مرتضى:

- ألم يقل «وجبهتي - بالموت - محنية؛ لأنني لم أَحْنِها.. حية»؟!

فتدخل عصفور:

- يا مرتضى، لا تسلم نفسك للأحلام.

أراد أن يحتج مرتضى لكن الحاج راضي قاطعه:

- أجل، لا داعي لكل هذه الضجة، إنه مجرد حلم عابر، سأتدبر لكم وصفة تقيكم شر الأحلام.

فأمن مرضي على حديثه قائلا:

- ونِعم الكلام.

ومال عصفور على أذن راضي هامسًا:

- ولا تنسَ أخاك عصفور.

فالتفت إليه راضي مستفهمًا:

- أنت أيضًا ترغب في وصفة الأحلام؟!

فضحك عصفور مداريًا ارتباكه وهو يقول:

- ها؟ أجل، أجل.

(٤)

أيها الشعر.. يا أيها الفرح المختلَس..
كل ما كنت أكتب في هذه الصفحة الورقية..
صادرته العسس!

***

في طابور الصباح، يصطف التلاميذ كما يصطف الجنود في الثكنة، متجمدين بلا حراك، حتى تظن الواحد منهم خاويًا، بلا روح، بلا إرادة، فالإرادة لا تجتمع إلا في يد القائد، والقائد هنا ليس الناظر بطبيعة الحال، فهو جندي هو الآخر، يؤدي التحية العسكرية للضابط المشرف، شأنه في ذلك شأن جنوده المكفنين في زيهم العسكري، وسلاحهم الصدئ.
يؤدي التلاميذ التمارين الرياضية بنشاط مفتعل، فالكل يعلم عاقبة التقصير. كانوا في زماننا يلهون بالتمرينات الرياضية، فتارة يصطنعون الجد وتارة يضحكون، وأما الآن فقد اختلف الأمر كلية، فهذا الزمان لم يعد لنا، بل صار زمان الجنود.

***

قلت لكم مرارا
إن الطوابير التي تمر..
في استعراض عيد الفطر والجلاء..
(فتهتف النساء في النوافذ انبهارا)..
لا تصنع انتصارا.
إن المَدَافع التي تصطف على الحدود.. في الصحارى
لا تطلق النيران.. إلا حين تستدير للوراء
إن الرصاصة التي ندفعها فيها..
ثمن الكسرة والدواء:
لا تقتل الأعداء
لكنها تقتلنا.. إذا رفعنا صوتنا جهارا
تقتلنا وتقتل الصغارا.

***

ألقى الناظر كلمته، التي تكون عادة التعليمات التي أملاها عليه الضابط المشرف، فيمليها هو بدوره علينا بصوت زاعق مصطنع.

وصاح الجندي:

- انتباه.

فانتبهنا.. يتعين علينا دومًا أن ننتبه، حتى لا يتسلل عدونا في غفلة منا، هكذا يقول الضابط المشرف وهو يصرخ في الصغار محمسًا، قبل أن يردد الصغار نشيد الجيش.. نسي الصغار نشيد الوطن.

ويصعد التلاميذ إلى الفصول؛ حيث نسكب - نحن المعلمين - في وعيهم تُرَّهات أُعدت لنا ولهم على السواء.

وما الفارق! وقد نسي الصغار نشيد الوطن.

خط رضا عنوان الدرس بالطباشير.. الشاعر.

قلَّب الأطفال بصرًا حائرًا بين عنوان الدرس الذي أعد لهم، وما يعده لهم

الأستاذ من شقاء.
فخاطبهم الأستاذ حازمًا:
- أغلقوا كتبهم.
فلما أغلقوها، قال:
- اليوم أحدثكم عن الشاعر، عن الذي قال لا في وجه من قالوا نعم.
كان الشاعر يقول: كنت أظن أن الشعر لا يكتبه أمثالنا من جنس البشر، فقد تفتحت روحنا على إبداعات شوقي وجبران وغيرهم ممن لم نشهد حياتهم بأعيننا، فظننّا أن الشعر يأتينا من العالم الآخر.
في تلك اللحظة اقتحم الفصل الضابط المشرف، ومن دون مقدمات، قرأ العنوان المكتوب على «السبورة»، ثم نظر إلى رضا وأغلق الباب وانصرف.
كان رضا يعلم أنه تجاوز الخط المسموح، كمن عبر الحدود في غفلة من الجنود، الجنود الذين تركوا الحدود للإشراف على المدارس وتأمين الانتخابات والمشاركة في الاحتفالات والتشريفات.
نظر رضا إلى وجوه الصغار ثم حدثته نفسه بأن البراءة التي في وجوههم، حية لم تمت، وأن المستقبل الذي ينتظرهم ليس قَدَرًا قُدِّر لهم، بل هو رهن إرادتهم، فابتسم، ثم قال:
وغدًا..
سوف يولد من يلبس الدرع كاملة..
يوقد النار شاملة..
يطلب الثأر..
يستولد الحق..
من أضلع المستحيل.
- انتهى الدرس.

(٥)

رأوه من مكانهم بالمقهى وهو يسير في جماعة من الناس صوب الساحة الخالية، فلما بلغها وقف منتصبًا وخلفه جماعته، فهرول نحوه كل أهل الرضا، وعيونهم متعلقة بوجهه الحزين، وهم في شغل عن عريهم.

لم يكن الواحد منهم - أهل الرضا - يرتدي ما يستر عورته، وهو يقف أمام الرجل الحزين، الذي أتى ليخاطب أهل الرضا جماعة.

تعرفوا في أتباع الرجل الحزين على أهليهم الأولين الذين قضوا، أيام كانت لهم الحارة بما عليها.

كل التساؤلات التي طاردتهم خلال الأيام السابقة، ذهبت أدراج الرياح، فلم يملك الواحد منهم إلا أن ينتظر سماع كلمات الرجل الحزين، ورسالته الموجزة..

قلت لكم في السنة البعيدة

عن خطر الجندي

عن قلبه الأعمى، وعن همته القعيدة

يحرس من يمنحه راتبه الشهري

وزيه الرسمي
ليرهب الخصوم بالجعجعة الجوفاء
والقعقعة الشديدة
لكنه.. إن يَحِن الموت
فداء الوطن المقهور والعقيدة:
فر من الميدان
وحاصر السلطان
واغتصب الكرسي
وأعلن «الثورة» في المذياع والجريدة!

(٦)

في المساء سلك طريقه إلى المقهى، فوجد أهل الرضا قد افترشوا الرصيف مهمومين، كان قد سمع عن وصفة الأحلام التي أعدها الحاج راضي، لمواجهة الرجل الحزين كما يسمونه، وكان بصدد سؤالهم عن النتيجة، لكنه لما اقترب منهم، وألفى الهم في ملامحهم، عدل عن نيته، واختار لنفسه مقعدًا يبعده عن حوار بات متوقعًا ومكررًا.

هؤلاء الناس يخشون الأحلام، يود الواحد منهم لو يعمر ألف سنة، على حاله هذه من الرضا. الدخل يقل والإنفاق في ازدياد، يشكو ليل نهار من غلو الأسعار، وجشع التجار، وغشامة الجنود، وصخب الاحتفالات، وتبذير القوت، لكنه يردد بين الفينة والأخرى: «القناعة كنز لا يفنى».

القناعة بحكمهم، ومن ذا سواهم ينهب الدور ويسكن القصور ويقهر من يثور!

فجأة قال مرتضى مخاطبًا عصفور:

- أنت لم تكن بيننا!

انتبه رضا للجملة الأخيرة، واسترجع حلم الليلة الفائتة حين خاطبهم الشاعر

جماعة، في الساحة الخالية أمام المقهى، وهم حوله ينصتون في خشوع، لكن عصفور لم يكن بينهم، لم يكن يومًا واحدًا منهم.

ارتبك عصفور وهمَّ بأن يدافع عن نفسه، لكن مرتضى لم يمهله، فوجه حديثه إلى رضا متسائلاً:

- مضبوط يا أستاذ؟

فأومأ الأستاذ ولم يعلق، فالتقط مرضي طرف الحديث وقال:

- آه لو نعرف من هو!

ثم وجه السؤال إلى رضا، فتجاهله.

وقال راضي:

- أخفضوا أصواتكم، إنهم الليلة في كل شبر.

آه، لقد حضروا ليطاردوا الحلم، ليخنقوه، يئدون الأحلام قبل اكتمالها، لعلهم يحولون بيننا وبين تحقيقها، وإنا لنحلم بحياة كالحياة.

لعل رمضان يردد الآن: «أبانا الذي في المباحث، نحن رعاياك»، ولهذا لم يتجلَّ له الشاعر يومًا.

هب رضا واقفًا فجأة وقال مخاطبًا الجالسين بالمقهى:

- تسألون وتسألون عن الرجل الحزين، ألا إنه ضميركم الذي صرعتموه، وكممتم بأيديكم صوته حتى أخرستموه، خنقتموه، فاحتضر، ثم في جنازته وقف ينتظر، ليسجل بقلمه، في الساعة الخامسة عصرًا ذرفت دمعة، لكنه انتظر وانتظر، فلمَّا خاب أمله، انصرف إلى قبره حزينًا، مكلومًا، فصارت روحه تجيئكم كل ليلة لتذكركم بجُرمكم، تقول وتقول فلا تُسمع، وتشاغلتم عنها بالأسماء، وأعرضتم عن تدبر الكلمات.

ثم استطرد:

- هل يذكر واحد منكم الكلمات التي ألقاها بيننا ليلة البارحة؟

فلما لم يجد إجابة، استطرد:

- طبعًا لا تذكرون الكلمات.. لكنكم مع ذلك تصرُّون على معرفة اسمه،

فليكن فإن اسمه «أمل».

وتركهم وانصرف عائدًا إلى منزله، فقطع الساحة أمام المقهى، وخطا في الزقاق المظلم الذي يفضي إلى النصف الآخر من الحارة؛ حيث يستقر منزله، لكنه توقف قبل أن يبلغ نهايته، واستدار بغتة فرأى من يعترض مدخل الزقاق بجسده فابتسم، ونظر إلى نهايته فرأى آخر ينتظر تقدمه أو تقهقره ليتحين اللحظة المناسبة.

فأسلم رضا لهم نفسه دون مقاومة، فقيدوا وثاقه، ثم اقتادوه معصوب العينين إلى سيارة حملته إلى السجن، فلما بلغه استقبلوه كما تنص مراسم حفل الاستقبال، ثم اقتادوه إلى زنزانته الضيقة المعتمة، وقال الحارس بنبرة محايدة:

- غدًا يصدر الحكم.

وخيَّم ظلام الليل، فانقطع الضوء الخافت الذي كان يتسلل إلى زنزانته عبر الكُوَّة الصغيرة أعلى الحائط، ثم سمع صوت قدَّاحة ورأى على ضوء لهبها الوجه الأسمر النحيل يشعل سيجارة بقداحته الذهبية اللامعة، مرتديًا قميصًا هو خليط من ألوان: الأصفر والأبيض والأزرق والبني، وبنطلونًا بنيًّا. ما زال على شغفه القديم بأن يكون متفردًا.

- ياه، ها أنت ذا.. أخيرًا.

ابتسم ولم يعلق.

- لكن، أنا مستيقظ!

نفث دخانه وقال بنبرة هادئة:

- أجل، لقد استيقظت لتوِّك.

- هل من كلمة أخيرة؟

- أنت فارس هذا الزمان الوحيد، وسواك المسوخ.

(٧)

صدر الحكم بإعدام رضا في محاكمة عسكرية استغرق الوصول إليها وقتًا أطول مما استغرقه الحكم فيها.

ولما بلغ الحكم أهل الرضا تحسروا على الرجل، وأصروا على تشييع جنازته، وإن كان النعش خاليًا من الجثمان.

وقال مرضي:

- لقد قال إن اسمه «أمل»!

فقال راضي:

- أكان ذاك هو اسمه حقًا؟

وقال مرتضى:

- قد يكون أملاً!

وفي الجنازة، كثر الحديث عن الرجل الحزين، وكلماته الأخيرة، فتحولت الجنازة إلى مظاهرة، وتحولت المظاهرة إلى ثورة، التقطت في طريقها من مرت به فأحيت قلبه الضامر، وردت إليه روحه، حتى بلغوا الميدان، فإذا به شامخًا يتوسط الميدان، فهتف الجمع في فرح:

- إنه الرجل الحزين.
كلا.. لم يكن حزينًا حينئذٍ، فقد ذهب عنه حزنه القديم، وشعر بطمأنينة الأسرة في أنفاسهم اللاهثة بحثًا عن الحرية.
تقدم الجمع ثم التفوا حوله ينصتون إلى كلماته الأخيرة:
الآن.. مهما يقرع الإعصار
نوافذ البيت الزجاجية
لن ينطفئ في الموقد المكدود رقص النار
تستدفئ الأيدي على وهج العناق الحار
كي تولد الشمس التي نختار
في وحشة الليل الشتائية!

«لن أطلب منكم الوقوف دقيقة حدادًا، فنحن إذا وقفنا حدادًا فسيكون الحِداد على عصر طويل قادم.
حدادًا على العصر الذي سيمضي حتى يشب فيه رجال لهم شيم الرجال الذين كان يراهم أمل دنقل.. وكرم الرجال الذين كان يحلم بهم أمل دنقل، وشرف ونبل وإنسانية وشجاعة ورِقَّة الرجال الذين استشهد أمل دنقل وهو يراهم، ويحلم برؤيتهم».

يوسف إدريس

شكر خاص

إيمان مجدي
ضحى إبراهيم
أسامة فهيم
أحمد جمال
إيمان قنان
إسلام فتحي